بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الجزيرة

معهد إسلام المعرفة (إمام)

(بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم)

النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم: نحو برنامج للبحث العلمي

(2020م)

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ٥٠﴾ (المائدة)

1- الرؤية الوجودية لعالم الاجتماع الإنساني في القرآن الكريم

* الرؤية الوجودية القرآنية تستوعب وتتجاوز الرؤية الوجودية المادية لماريو بنج، وللمدرسة الوجودية النقدية التي ينتمي إليها، المحدودة بعالم الشهادة، المحجوبة بظاهر من الحياة الدنيا، لأن الرؤية القرآنية مؤسسة على الأبعاد الوجودية لعالمي الغيب والشهادة، ومن ثم تتيح ثراءً كبيرا في معطيات التحليل للنظم الاجتماعية، وتنوعا وعمقا غير محدود في تفسير مظاهر الوجود الإنساني المتجذر في عالمي الغيب والشهادة.

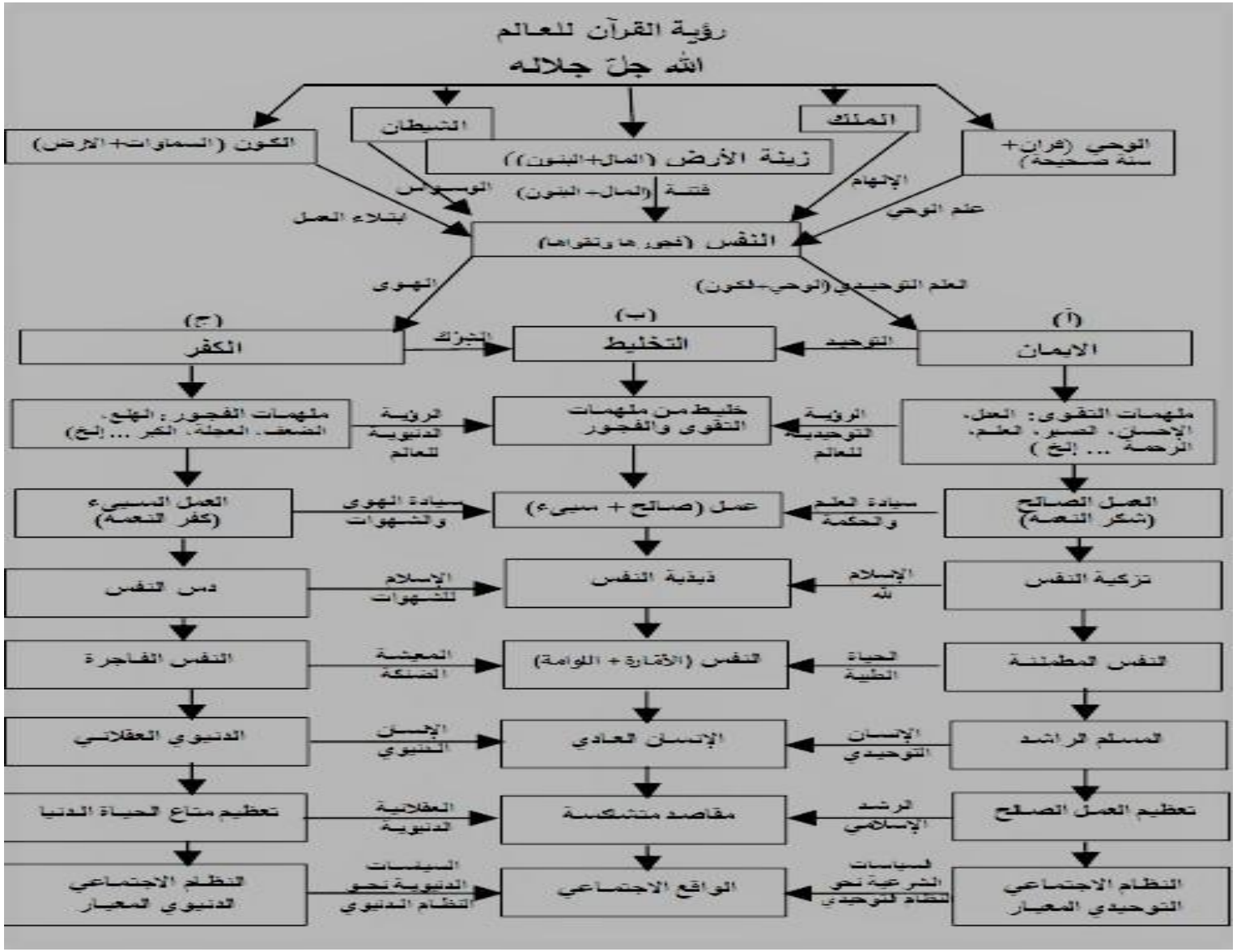
رؤية القرآن للعالم
الله جلّ جلاله
الكون (السماوات+الأرض)
الشيطان
الملك
الوحي (قرآن+سنة صحيحة)
زينة الأرض (المال+البنون))
الوسوسة
فتنة (المال– البنون)
الإلهام
ابتلاء العمل
عدم الوحي
النفس (فجورها وتقواها)
الهوى
العلم التوحيدي(الوحي–الكون)
(ج)
الكفر
(ب)
التخليط
(أ)
الايمان
التوحيد
ملهمات الفجور: الهلع، الضعف، العجلة، الكبر ... إلخ)
الرؤية الدنيوية للعالم
خليط من ملهمات التقوى والفجور
الرؤية التوحيدية للعالم
ملهمات التقوى: العدل، الإحسان، التصبر، العلم، الرحمة ... إلخ)
العمل السيىء (كفر النعمة)
سيادة الهوى والشهوات
عمل (صالح + سيىء)
سيادة العلم والحكمة
العمل الصالح (شكر النعمة)
دس النفس
الإسلام للشهوات
ذبذبة النفس
الإسلام لله
تزكية النفس
النفس الفاجرة
المعيشة الضنكة
النفس (الأمارة + اللوامة)
الحياة الطيبة
النفس المطمئنة
الدنيوي العقلاني
الإنسان الدنيوي
الإنسان العادي
الإنسان التوحيدي
المسلم الراشد
تعظيم متاع الحياة الدنيا
العقلانية الدنيوية
مقاصد متشكسة
الرشد الإسلامي
تعظيم العمل الصالح
النظام الاجتماعي الدنيوي المعيار
السياسات الدنيوية نحو النظام الدنيوي
الواقع الاجتماعي
السياسات الشرعية نحو النظام التوحيدي
النظام الاجتماعي التوحيدي المعيار

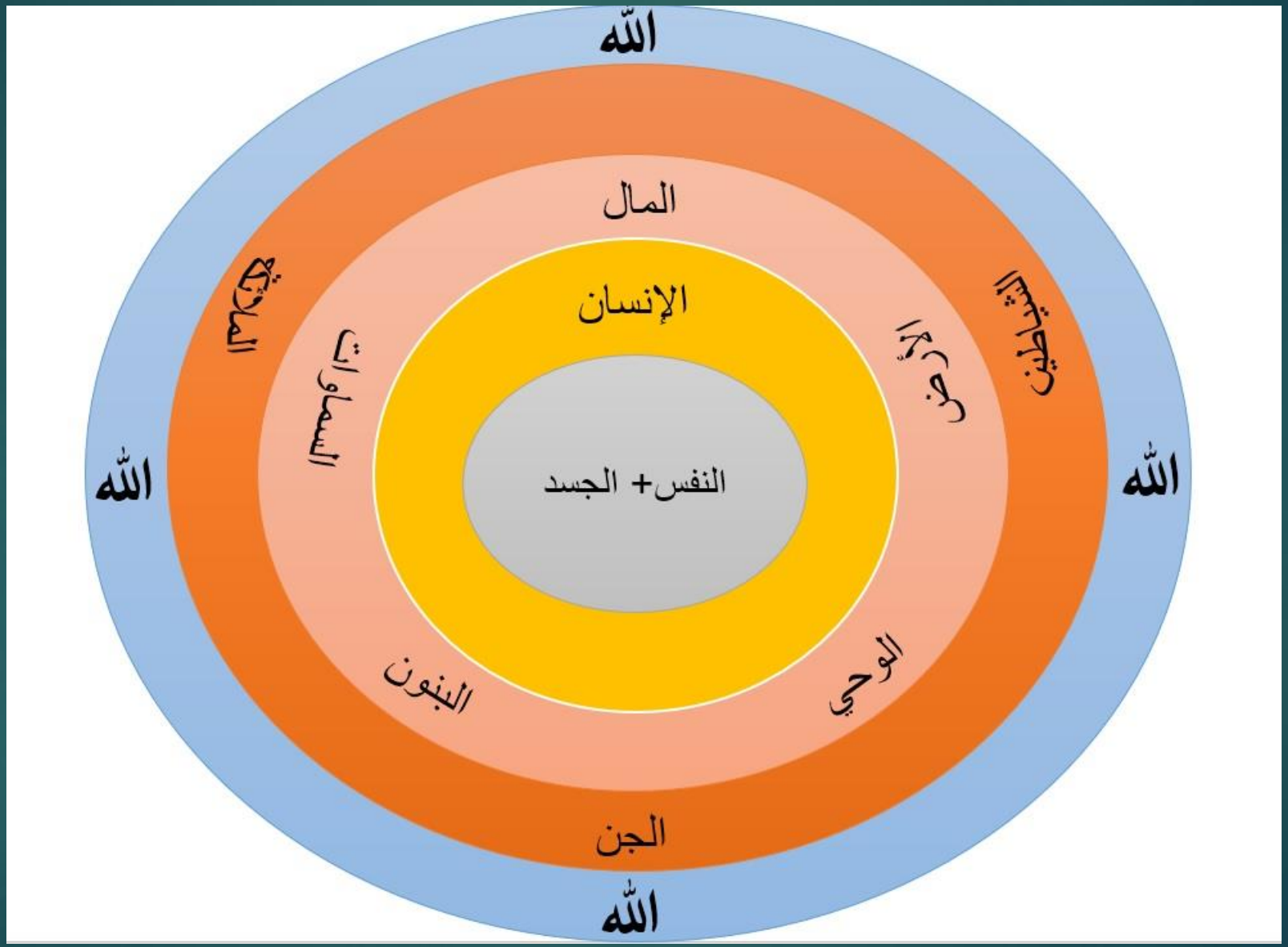
الله
المال
الإنسان
النفس+ الجسد
الملائكة
السماوات
الأرض
الشياطين
الله
الله
البنون
الوحي
الجن
الله

* إذا نظرنا إلى الشكلين أعلاه الذين يلخصان رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني فسوف نتبين القوى الفاعلة الآتية في فضاء الوجود الاجتماعي:

أولا؛ الله المتعالي، المصدّق، والمهيمن على جملة الفضاء الاجتماعي، إحاطة مباشرة، ومن خلال السنن الاجتماعية المذكورة في القرآن الكريم؛

ثانيا؛ الوحي الإلهي المنزل على فضاء الوجود الاجتماعي في كتاب بلسان عربي مبين، وهو يحوي المثال الديني المطلوب إقامته في الواقع الاجتماعي الظرفي، وهو كلام الله وعلمه، وهو محفوظ من التحريف بحفظ الله له إلى قيام الساعة؛

ثالثا؛ الوجود الاجتماعي، وقاعدته الكونية (النفس، المال، البنون) المحددان بالزمان والمكان، باعتباره الواقع الاجتماعي الظرفي الذي سوف يُشاد فيه بنيان الدين، ومن ثم الاتجاه بالواقع الاجتماعي الظرفي (الدين المقام) نحو التوحّد مع مثاله الديني الثاوي في الوحي الإلهي؛

رابعا؛ الشيطان، عدو الإنسان، الساعي لمنع إقامة بنيان الدين من قِبَل الإنسان، أو لتقويضه بعد بنائه؛ وهناك الجن منهم المسلمون، ومنهم القاسطون؛

خامسا؛ الملائكة، رسل الله تعالى، لا تفعل حتى تُؤمر، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون؛

سادسا، أخيرا هناك البعد الكوني لفضاء الاجتماع الإنساني.

1.1.3- انبثاق الجسد البشري

* الانبثاق الأول للإنسان بحسب الترتيب القرآني هو الجسد البشري الحي من تفاعلات الطين المتخمر ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ٢٦﴾ (الحجر)، وقد جعل الله تعالى من الماء كل شيء حي. والجسد البشري أُعِدّ، فيما أرى، لثلاث مهام في هذه الحياة الدنيا، أولها استقبال الروح المنفوخة فيه والتفاعل معها، والثانية أشرت إليها أعلاه وهي خوض غمار ابتلاء زينة الحياة الدنيا الذي هو قدر الإنسان في هذه الحياة، والثالثة حفظ النوع البشري عن طريق التناسل، وحفظ تنوعه عن طريق نقل المورثات الجينية، فقد جعل الله تعالى نسل بني آدم في ظهورهم.

2- النظم الاجتماعية في رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني

* "النظام الاجتماعي الإنساني هو نظام اجتماعي يتشكل من الناس، ومما عملته أيديهم من أشياء، ويمسكه روابط من الأحاسيس، المعتقدات، المعايير الأخلاقية والقانونية، وأفعال اجتماعية مشتركة". النظم الاجتماعية الكلية، التأسيسية التي تم استخلاصها من رؤية القرآن للعالم هي أربعة: النظام الاجتماعي العام المثال (شكل رقم-2)، نظام الاجتماع الدنيوي المثال (شكل رقم-3)، نظام الاجتماع التوحيدي المثال (شكل رقم-4)، نظام الواقع الاجتماعي (شكل رقم-5)، و(شكل رقم-7).

3- دلالة المنهج النظمي على النظم الاجتماعية

1.3- انبثاق الإنسان في رؤية القرآن للعالم

* النظم الاجتماعية في هذا البحث هي كائنات اجتماعية "تنبثق" من الفعل والتفاعل الاجتماعي بين آحاد الناس في إطار جماعة معينة من الناس يحدها الزمان ولربما المكان. لذلك لابد أن يكون المدخل المنهجي الصحيح هو الإجابة عن سؤال: من هو هذا الإنسان ذو الخواص السببية التي تُحدث كل هذه الآثار الاجتماعية بظواهرها التي لا تحصى؟

* الإجابة عن هذا السؤال تقتضي استدعاء أمرين، أولهما مفهوم "الانبثاق" الذي شرحنا معناه في بحثنا سابق الذكر عن "الطريقة النظمية" لماريو بنج. نقتطف الآتي من ذلك البحث بما يخدم الغرض الذي نحن بصدده:

"يُعتبر أي مظهر من مظاهر الوجود تم العثور عليه في مستوى معين من التنظيم (organization) "منبثقا" (emergent) إن كان هناك احتمال لنشأته من مستوى وجودي أدنى، وتم تكييفه (conditioned) من قِبَل خواص (properties) ذلك المستوى الأدنى ويعتمد عليها، ولكن لا يمكن التنبؤ به من خلال العلم التام بتلك الخواص، أي من خلال النظام".

* الأمر الثاني الذي لا يستقيم فهم طبيعة الخَلْق الإلهي للإنسان إلا به هو ما أطلقت عليه اصطلاحا "خطة الخلق العامة" التي فصّلَتها رؤية القرآن للعالم في البحث الأول الذي ساهم به هذا الباحث في إطار المشروع البحثي الجماعي الجاري الآن بإمام، لأن المقصد الإلهي من خلق الإنسان الذي بيّنه التدبير الإلهي في الخطة يفسّر لنا لم خلق الله تعالى الإنسان على الهيئة التي سوف نتبين معالمها أدناه. إن قول الله تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات....) إنما يفهم في إطار نسبة هذا الخلق إلى الابتلاء والامتحان في زينة الحياة الدنيا (المال والبنون) ومآلاته، وهو امتحان لابد أن يخوض كل إنسان غماره في هذه الحياة الدنيا ليؤول أمره إلى مآلين أشارت إليهما الآية الكريمة بعد الخلق في أحسن تقويم. لكن إن لم نستحضر هذه العلاقة التناسبية بين حقيقة الابتلاء وحقيقة الخلق الإنساني فسوف يعسر الفهم للحكمة من خلق الإنسان بالطريقة المعجزة التي خلقه الله بها كما بينها القرآن الكريم.

* نستنبط من رؤية القرآن للعالم التي قام الباحث باستخلاصها وتطويرها سنين عددا أن خلق الإنسان شهد أربعة أنواع من "الانبثاق" قبل أن يستوي الإنسان بشرا سويا، وفي أحسن تقويم من حيث استعداداته الفطرية لخوض امتحان زينة الحياة الدنيا الذي هو قدره في هذه الحياة. نوجز هذه الأربعة أنواع من الانبثاق في الآتي:

1.1.3- انبثاق الجسد البشري

* الانبثاق الأول للإنسان بحسب الترتيب القرآني هو الجسد البشري الحي من تفاعلات الطين المتخمر ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ٢٦﴾ (الحجر).
* الجسد البشري أُعِدّ، فيما أرى، لثلاث مهام في هذه الحياة الدنيا:

1- استقبال الروح المنفوخة فيه والتفاعل معها؛ (بلغة الكومبيوتر علاقة عتاد وبرمجيات وبرامج)
2- خوض غمار ابتلاء زينة الحياة الدنيا؛
3- حفظ النوع البشري عن طريق التناسل، وحفظ تنوعه عن طريق نقل المورثات الجينية.

* الجسد البشري الحي هو نظام حيوي يستوفي جميع الشروط الوجودية المادية لنظام الكائن الحي، وله خواصه السببية المنبثقة التي لا توجد في عناصره الأولية المكونة له (الخلايا).

* لكل إنسان بصمة جسدية خاصة به بحيث لا يتطابق جسدان ولو كانا توأمين، فلكل إنسان بصمته اللونية، والبنانية، والعينية، واللسانية ...إلخ يكتسبها من خلال مورثاته الجينية كما يبين ذلك العلم الحديث.

* إذن الجسد البشري يضرب بجذوره في الكون، وتتجسد فيه جميع العناصر المكونة له بمستوياتها المختلفة، فيزيائية وكيميائية وحيوية.

2.1.3- انبثاق الروح من الأمر الإلهي

* الانبثاق الثاني للإنسان بحسب القرآن الكريم يتمثل في انبثاق الروح من الأمر الإلهي: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا٨٥﴾ (الإسراء)؛ ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ٢٩﴾ (الحجر).

1.2.1.3. - مفهوم الروح في التراث المعرفي الإسلامي

* يورد ابن القيم في كتابه (الروح)، في المسألة السابعة عشرة السؤال الآتي:
"هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة؟ وإذا كانت محدثة مخلوقة، وهي من أمر الله، فكيف يكون أمر الله محدثا مخلوقا؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة".

* "ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها، وكوّنها، واخترعها؛ ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه..... وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمي مخلوقة مبتدعة باتفاق سلف الأمة وائمتها وسائر أهل السنة".

* بعد استعراضه لعدد وافر من آراء الفقهاء ترجح لابن القيم تأخر خلق الروح عن خلق الجسد مقدما أدلته في ذلك.

3.1.2.2. - مفهوم الروح في نظرية النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم

* نعرّف الروح بأنها

"كائن معنوي منبثق عن التفاعل بين عناصره المكونة له، وهي الصفات، أو القوى السببية الإلهية التي خلق الله تعالى بها الكون، وجاء الكون استجابة ضرورية لفعاليتها مثل العلم، الإيمان، المودة، الرأفة، الرحمة، السمع، البصر، العدل، الإحسان، الصبر، الشكر، السلام، الإبداع، اللطف، العزّة، القوة، الجبرة، المتانة، الهيمنة، القدرة، الإرادة...إلخ". ولما قدر الله تعالى أن يكون الإنسان خليفته في الأرض، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه حتى يتحرك فيهما بلا عوائق، كان لابد أن يكون له من الخواص السببية ما يقتضي استجابة الكون لوقعها بالفعل الإنساني، وليس من قوى سببية أعظم وأدعى أن يستجيب الكون المسخر لوقعها بهذا الفعل الإنساني من تلك التي جاء الكون استجابة لوقعها بالفعل الإلهي. وإذا كانت القوى السببية الإلهية مطلقة عند الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ٨٢﴾ (يس)، فنصيب الإنسان منها نسبي، وهذا النصيب مخلوق خلقا يناسب الإنسان في مهمته الاستخلافية عن الله تعالى في الأرض. ومهمة الروح ككائن معنوي هي جعل هذه القوى السببية الإلهية جزءا من خلق الإنسان من خلال نفخها في الجسد الطيني الذي انبثق أولا كما أسلفنا.

* النسيج الذي يربط بين هذه القوى السببية الإلهية، المخلوقة بما يتناسب مع خلق الإنسان، في تفاعلها المؤدي إلى انبثاق "الروح"، هو (لا إله إلا الله)، وهو ذات النسيج الذي يمسك الكون من الزوال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ (فاطر).

* الصفات الإلهية مطلقة السببية في الذات الإلهية، ولهذا الإطلاق السببي جاء "الكون" استجابة ضرورية ل"كن فيكون"، ولكنها نسبية السببية في الذات الإنسانية، وهي أساس الخُلُق الإنساني الذي سقفه خُلُق الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ (القلم).

* الروح بهذا التعريف هي كائن غير قابل للفناء والفساد، وهي نظام جامع للصفات الإلهية في نسبيتها الإنسانية، ولأن الصفات لا قوام لها بذاتها بل لابد لها من حامل يحملها، فقد عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان لأنه هو ذلك الكائن المقصود بتلك الصفات الجليلة.

* إن الصفات الربانية التي تهيأت للإنسان بنفخة الروح فيه تربطه ربطا وثيقا بعالم الأمر الإلهي الذي جاءت منه، فكل صفة من هذه الصفات طرفها الأدنى عند الإنسان وطرفها الأعلى عند الله تعالى، وهو تعالى الذي يقبض ويبسط منها لكل إنسان بمقدار سعيه في التخلّق بها طلبا لها من مظانها، وبمقدار التحقق بها في الحياة العملية صلاحا في الأرض.

* كل صفة من هذه الصفات الربانية التي كُرّم بها الإنسان مفتوحة على ما يناسبها من خزائن الله التي لا تنفد: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ٢١﴾ (الحجر)؛ وفي الصحيحين عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: *(إِنَّ اللَّهَ خلقَ الرَّحمةَ يومَ خلقَها مائةَ رحمةٍ أنزلَ منْها رحمةً واحدةً فبِها يتراحمُ الخلقُ حتَّى إنَّ الدَّابَّةَ لترفعُ حافرَها عن ولدِها من تلكَ الرَّحمةِ واحتبسَ عندَهُ تسعًا وتسعينَ رحمةً فإذا كانَ يومُ القيامةِ جمعَ هذِهِ إلى تلكَ فرحِمَ بِها عبادَهُ)*. فتأمل كيف تحولت الرحمة، وهي صفة ربانية، إلى خلق من خلق الله، وخزنة من خزائنه ينفق منها على مخلوقاته، وقس على ذلك بقية الصفات.

3.1.3.- انبثاق النفس

1.3.1.3. - النفس في التراث الإسلامي

* طرح ابن القيم في **المسألة التاسعة عشرة** في كتابه "الروح" الأسئلة الآتية:

"ما حقيقة النفس؟ هل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسم مساكن له منفوخ فيه، أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الأمّارة واللوّامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات، أم هي ثلاثة أنفس؟ ".

* انتصر ابن القيم للرأي القائل بأن النفس هي:

"جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم. فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك ا لجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية . وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح ".

* علّق ابن القيم على التعريف أعلاه بقوله: *"وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصح غيره، وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة، وأدلة العقل والفطرة" .*

*** المسألة عشرون في كتاب الروح احتوت على السؤال الآتي: هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟**

* يجيب ابن القيم: "أما الروح التي تتوفى وتقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس".

*** أورد ابن القيم في المسألة الواحد والعشرين السؤال الآتي: هل النفس واحدة أم ثلاثة؟**

* يجيب ابن القيم: والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم. فتسمى "مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه. أما اللوامة، وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة، 2) فاختُلف فيها، فقالت طائفة هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلَوُّم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلّب والتلوّن. وأما النفس الأمارة، فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله، وثبتها، وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له.

2.3.1.3.- النفس في نظرية النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم

المرحلة الثالثة من انبثاق الإنسان هي في انبثاق "النفس" من التفاعل بين الجسد الحيوي والروح حاملة الخواص السببية الإلهية إليه. والنفس في القرآن الكريم غير الروح، فعندما تكلم الله تعالى في القرآن عن "الروح" التي نفخها في الإنسان لم يفصح عن حقيقتها، وإن ثبت فيما نقلناه عن ابن القيم أنها كائن مخلوق، بينما تكلم عن خواص "النفس" وأوصافها وأحوالها في الحياة، وفي المنام، وفي الممات، وأنها هي المُكلّفة في هذه الحياة الدنيا، وأنها هي المحاسبة في الدار الآخرة، وأنها حقيقة الإنسان.

* "النفس" بهذا الانبثاق هي كائن كلّي، حي ومدرك، وهي نظام يستمد وجوده من مكوناته (الروح، الجسد)، ومن التفاعل الدائم بين هذه المكونات داخل قلب الإنسان، ولكن النفس تختلف عنهما من حيث خواصها السببية المنبثقة التي لا توجد في أي من هذه المكونات منفردة، وإن كانت لها أيضا خواص مكتسبة من الخواص السببية للجسد الطيني والخواص السببية للروح.

* نفترض مرة أخرى أن النسيج الذي يربط بين الروح والجسد في تفاعلهما الذي تنبثق منه نفس الإنسان هو (لا إله إلا الله)، أو بمعنى آخر (كن فيكون)، فالطبيعة الغيبية للروح تجعل من غير الممكن، على الأقل في الحال الراهن للعلم، الدراسة التجريبية لكيفية ارتباطها بالجسد البشري. وهو افتراض آمن، بل مسلمة إيمانية غيبية يحتملها التنظير، في حال تعذر الوصول إلى افتراض أقرب رُحْما إلى التجريب. وقد لا يكون ذلك مُهِمّا ما دام هذا التفاعل ثمرته هي النفس المنبثقة القابلة للدراسة التجريبية.

- * هناك حديث نبوي صحيح رواه البراء بن عازب، رضي الله عنه، وصححه الألباني، له دلالة على الطبيعة الوجودية للنفس المنبثقة من هذا التفاعل بين الروح والجسد تتعلق ببعد مادي مائي فيها إذ أنها تخرج "تسيل كما تسيل القطرة من فِيّ السقاء"، وأنها توضع في كفن وحنوط، ولها ريح طيب كرائحة المسك، فماذا لو كان هذا هو الأثر السببي للجسد في تفاعله مع الروح الذي انبثقت منه النفس، لاسيما وأن معظم الجسد البشري يتكّون من الماء مع قليل من أخلاط الأرض. ولنتذكر أن الله تعالى يخبرنا في القرآن الكريم في آيات كثيرة أن الإنسان خُلق من الماء، كما هو حال كل دابة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا٥٤﴾ (الفرقان).

* إذن الروح خلق من أمر الله في عالم الغيب، والماء المبارك خلق بقدر الله في عالم الشهادة، فالتقى الماء والروح على أمر قد قُدِر فكان الانبثاق العظيم للنفس البشرية بخواصها السببية المميزة، فلا هي كائن مادي خالص، ولا هي كائن روحي خالص، وربما هذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ١٤﴾ (المؤمنون). من الخواص الروحية للنفس تأتي تَعلُّقاتها العلوية، ومن الخواص المائية المادية للنفس تأتي تعلُّقاتها الدنيوية، وعلى الاثنين معا يتأسس ابتلاء زينة الحياة الدنيا (المال والبنون).

* إذن "النفس" في الإنسان هي كائن حي منبثق، مستقل يجمع بين الخواص السببية الإلهية للروح في نسبيتها البشرية، وبين الخواص السببية المادية للجسد، وهي ما يسميه علم النُظُم بالخواص المكتسبة، ويزيد عليها بخواص سببية منبثقة تميزه عن كليهما، ذكر معظمها ابن القيم فيما نقلناه عنه سابقا، وذكرنا بعضها مما أثبتناه أعلاه للماء من خواص. لكن بينما معظم الخواص السببية الروحية توجد ابتداءً بالقوّة في النفس المنبثقة، ولا توجد فيها بالفعل إلا إذا تم تفعيلها اختيارا من قبل الإنسان، فإن الملائم من الخواص المادية للحكمة من خلق النفس، مثلا حب الشهوات، أسبق بالفعل من الخواص الروحية فيها لأن الجسد المادي للإنسان يحتاج إلى الوفاء بمقومات بقائه المادية حتى والطفل في بطن أمه، لاسيما بعد نفخ الروح فيه وانبثاق نفسه ومسؤوليتها عن نموّه كإنسان، ثم بعد خروجه إلى الحياة الدنيا أول عهده بها وهو أحوج إلى غذاء البدن منه إلى غذاء الروح. لذلك تسبق بأمد بعيد تَعلّقات النفس الدنيوية، لا سيما حب الشهوات، تَعلّقاتها الأخروية، وما لم يتم تدارك النفس بالتربية وبالتزكية باكرا فإنه يعسر على الخواص الروحية إيجاد سبيل لها إلى النفس البشرية بعد ذلك

* هكذا يخرج الإنسان من بطن أمه، وقد خُلق في أحسن تقويم من حيث استعداداته الفطرية لخوض ابتلاء زينة الحياة الدنيا، وليبدأ مرحلة جديدة تؤدي إلى الانبثاق الرابع والأخير الذي يؤهله للنداء الإلهي: يا أيها الإنسان. ويمكن تلخيص هذه الاستعدادات الفطرية في ثلاث خواص كلية، هي: الخواص الإدراكية، وهي معنية بكسب العلم؛ الخواص الوجدانية، وهي معنية بتحويل العلم إلى إيمان؛ والخواص الإرادية، وهي المعنية بتحويل ما كسبته الخاصيتان قبلها إلى فعل إرادي في الكون، أي فقه العمل وإحكامه (إتقانه).

3.4.1.- انبثاق الكائن البشري

* نقصد بالكائن البشري الإنسان في كلّيته، المخاطب من قبل الله تعالى ب "يا أيها الإنسان"، وهي الكلية التي يشير إليها كل إنسان ب"أنا"، وجوهرها النفس التي عرّفناها أعلاه، ولكن الإنسان في كلّيته أكبر من نفسه المنبثقة من تفاعل الروح وماء الجسد، والدليل على ذلك أنه مخاطب في القرآن الكريم بتزكية نفسه: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)؛ وكذلك في قوله تعالى: (أخرجوا أنفسكم)؛ وفي قوله (بل الإنسان على نفسه بصيرة)، وغيرها كثير من الآيات التي تفيد أن الإنسان في كلّيته مهيمن على نفسه في كلّيتها، ومسؤول عن إدارتها. هذا الإنسان في كلّيته هذه كائن منبثق من مكوّناته الداخلية (النفس+ الجسد) والتفاعل بينها، ثم من تفاعلها مع مكونات بيئتها الخارجية. هذه البيئة الخارجية منها ما هو من عالم الشهادة، وما هو من عالم الغيب.

* هكذا ينبثق الإنسان في كلّيته من تفاعل فطرته التي فُطر عليها في أحسن تقويم مع بيئته الخارجية ليبدأ التفاعل والتأثير والتأثر بين هذه الفطرة وبين فضاء ابتلائها في زينة الحياة الدنيا، ويمضي كل إنسان في التشكّل بحسب ظروف البيئة التي ينشأ فيها، وابتلاءات الحياة وتصاريفها اللحظية التي يتقلّب فيها، وفعله وتفاعله معها، فكل إنسان في كلّيته هو في حقيقة الأمر ابن لحظته، أي يجسّده موقفه مما يجابهه في الحياة في كل لحظة وحين. وفي كل هذه التصرفات تظل النفس، بفجورها وتقواها، هي جوهر الإنسان، لكن الإنسان في كلّيته هو نظام له خواص منبثقة لا توجد في أي من مكوناته، فهو يتكلم بلسانه، وهو يمشي برجليه، وهو يبطش بيديه، وهو يبكي، وهو يضحك، وهو عجول، وهو هلوع...إلخ. كذلك للإنسان في كليته خواص اكتسبها من مكوناته الجسدية والروحية، فهو يجوع ويشبع، ويظمأ ويروى، ويعرى ويضحى، ويعنت، ويمرض ويصح، ويتألم، ويتفكّر ويتدبّر، ويخشى ويطغى، ويعدل ويظلم، ويرحم ويقسو، ويشكر ويكفر...إلخ. ومن تأثيرات بيئته الخارجية قد تتعزز فيه صفاته الروحية الربانية، أو صفاته الحيوانية، الشهوانية والغضبية.

2.3. - الإنسان كنظام

* يقتضي البحث الذي تحتويه هذه الورقة التعرّف بإيجاز على النظم الاجتماعية المستنبطة من رؤية القرآن للعالم من أربع زوايا يقتضيها المنهج النظمي، وهي: مكوّنات النظام؛ بيئة النظام؛ بنية النظام؛ مكنزمات النظام. ننطلق من هذا للتعرف على الإنسان، الذي شخّصناه أعلاه، كنظام يؤدي فعله وتفاعله الاجتماعي إلى النظم الاجتماعية الكلّية المختلفة التي ابتدرنا بها هذه الورقة.

1.2.3 - مكونات النظام

* يتكوّن الإنسان كنظام من مكونين أساسيين كما أسلفنا، هما "النفس" و"الجسد"، بينما "الروح" صارت، بحسب مفهوم "الانبثاق"، مكوّنا من مكونات النفس، لذلك لم يعد لها وجود مستقل في نظام الإنسان.

2.2.3- بيئة النظام

* الإنسان كنظام تتسع بيئته التي يتفاعل معها لكل فضاء الاجتماع الإنساني بمكوناته المختلفة مما ذكرت سابقا في هذا البحث، فمن عالم الشهادة هناك بيئة زينة الحياة الدنيا، بشقيها الاجتماعي والمادي، وهناك الوحي هداية للإنسان، وهناك الأرض والسماء، ومن عالم الغيب هناك الشيطان عدو الإنسان، وهناك الجن والملائكة. وفوق كل ذلك يوجد الله الخالق، عالم الغيب والشهادة.

3.2.3- بنية النظام

نعرّف بنية النظام بأنها مجموع العلاقات التي بين مكوّناته، مضافا إليها تلك التي بين هذه المكوّنات وبين عناصر بيئتها الخارجية، وتسمى الأولى بالبنية الداخلية للنظام، وتسمى الأخرى بالبنية الخارجية للنظام. ينبغي التمييز بين نوعين من العلاقات، تلك "الرابطة" لمكوّناته، و"غير الرابطة"، فالأولى هي روابط يُحدث وجودها، أو عدمه فرقا لمكونات النظام، بينما الأخرى ليست كذلك. فقط الروابط تسهم في إمساك مكونات النظام مع بعضها، ولذلك تعتبر جزءا من بنيته.

1.2.2.3. - البنية الداخلية

* تتكون البنية الداخلية للنظام من ثلاثة أنواع من الروابط تربط بين النفس والجسد، أولاها روابط حسية تتمثل في علاقات الحس من سمع، وبصر، ولمس، وشم، وذوق، وبطش بالأيدي، ومشي بالأرجل. فهذه القوى هي ضرورية للنفس حتى تتمكن من التعرّف على البيئة الخارجية التي لابد منها للإنسان لأنها، أولا؛ مصدر ضروراته الحيوية، ثم، ثانيا؛ مجال ابتلائه الذي من أجله خلق، ولكن الأدوات التي تجعل ذلك ممكنا هي أعضاء في الجسد، ومن هنا يأتي الربط البنيوي.

* النوع الثاني من الروابط الداخلية هي روابط نفسية تتمثل في روابط اللذّات والأفراح، والآلام والغموم التي تأتي إلى النفس من قبل الجسد عند تفاعله مع البيئة الخارجية، وهي روابط ضرورية تضمن للجسد سعى النفس في تحصيل مصالحه الحيوية، ودفع المفاسد عنه، فكأنها حافز يقدمه الجسد لتكون النفس في خدمته. وكل ذلك ضمان لدخول جميع الناس في ابتلاء زينة الحياة الدنيا حيث مِضمار السباق، ودليل على عظيم تدبير الخالق سبحانه وتعالى.

* النوع الثالث من الروابط الداخلية، وهي الأهم ويختص بها الإنسان دون غيره من خلق الله هي الروابط الروحية، أو الأخلاقية المتعلقة بالخواص السببية الإلهية التي اكتسبتها النفس من الروح، مثل العلم، الإيمان، الرحمة، العدل، الإحسان...إلخ، وكذلك نقيضها مثل الجهل، الكفر، القسوة، الظلم، البخل، الكبر، الهلع...إلخ، وهذه الأخيرة هي خواص نفسية منبثقة لا مكتسبة.

* هذه الخواص تحكم تفاعل النفس، ومن ثم الإنسان، مع البيئة الخارجية، ولكن النفس تحتاج غالبا إلى قوى الجسد للتعبير عن تدافع هذه القوى المعنوية فيها، ولتوظيفها في سعيها الدنيوي، فمثلا اكتساب العلم من مظانّه، قبل توظيفه، تحتاج النفس فيه إلى قوى السمع والبصر والفؤاد، وهي قوى تتبع لمنظومة الصفات الإلهية، وهذه بدورها تحتاج إلى قوى جسدية كالأذن، والعين، والدماغ والقلب. فإن كان العلم الذي تم اكتسابه يقتصر على ظاهر من الحياة الدنيا فإن توظيفه في الحياة تحتاج النفس فيه إلى قوى جسدية كالأيدي للبطش، والأرجل للمشي، والأنف للشم، واللسان للذوق وللكلام...إلخ. وإن كان العلم يراد به الدار الآخرة فتحتاج النفس أيضا في توظيفه لهذا الغرض، إضافة إلى ما سبق، إلى القوى الجسدية التي تمكّن من التدبّر في وحي الله، والتفكر في خلق السماوات والأرض، وتحويل ذلك إلى إيمان يستقر في القلب، وعمل صالح يستقر في الأرض مما يحتاج إلى توظيف كل أعضاء الجسد البشري.

2.2.2.3. - البنية الخارجية

يقابل الثلاثة أنواع من الروابط الداخلية المذكورة أعلاه ثلاثة أنواع من الروابط الخارجية التي تربط الإنسان بمجال ابتلائه في عالم الشهادة الأرضي، الأوّل، روابط مادية حيوية ضرورية تتعلق بحاجات الجسد من مأكل، ومشرب، وملبس، ومسكن، ومنكح. النوع الثاني من الروابط هي روابط الحب الشهواني بين النفس وبين زينة الحياة الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ١٤﴾ (آل عمران). النوع الثالث من الروابط هي روابط معرفية، علمية ضرورية تربط النفس بالبيئة الخارجية الأرضية من حيث ضرورة التعرّف على مفردات تلك البيئة الأرضية وعلاقتها النفعية بالإنسان، حتى يستطيع المشي في مناكبها، وتحصيل حظوظه من متاعها.

* الروابط أعلاه تربط الإنسان بعالم الشهادة حيث الاستخلاف الابتلائي، ولكن الروابط الخارجية الأهم هي تلك التي تربط الإنسان بعالم الغيب (الله، الشيطان)، وهذه الروابط هي ذاتها التي تأسست عليها علاقة الإنسان الأولى ببيئته الخارجية عند خلق آدم وزوجه، عليهما السلام، ودخولهما الجنة، ثم خروجهما منها، وهبوطهما والشيطان إلى الأرض.

* الروابط بين النفس والشيطان هي روابط ضرورية خفية، عَلِمها من عَلِمها وجَهِلها من جَهِلها، والجهل بها لا يبطل أثرها. وهي علاقة عداوة مستحكمة بين الإنسان والشيطان منذ الخلق الأول للإنسان، سُلّط فيها الأخير على الأول في أصل فتنته في هذه الحياة الدنيا، وهو حب الشهوات المودعة في زينة الحياة الدنيا، فهو لا ينفك يزيّن له هواه فيها، ويثير ملهمات الفجور في نفسه حتى يضلّه إن استطاع، وقد استطاع، إلا قليلا. والهدف النهائي للشيطان من هذه العلاقة أن يؤثِر الإنسان الحياة الدنيا حتى يقول: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ٣٧﴾ (المؤمنون)، وهي الرؤية الدنيوية المقابلة للرؤية التوحيدية، وقد بين الوحي حقيقتيهما للنفس في تبيانه للرؤية الوجودية الكلية.

* ترتبط النفس بالله تعالى الذي خلقها بنوعين من الروابط الضرورية المعلومة للباحث من القرآن الكريم، روابط سننية كلية في إطار فعل وتفاعل الإنسان مع البيئة الخارجية، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ٢٥﴾ (الأنفال). والرابط الثاني هو رابط مباشر يربط كل عبد بخالقه، حتى وإن جهل، أو أنكر العبد هذا الرابط، وظن بطغيانه أنه مستغن عن الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ٧﴾ (العلق). وهذا الرابط هو الرابط المصدق والمهيمن على جميع الروابط الأخرى للإنسان، لأنه يقوم على علاقة خالق ومخلوق، ورب ومربوب، ومعبود وعابد...إلخ، فمن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، ومن نهى عن القرآن ونأى عنه أهلك نفسه وهو لا يشعر، ومن جعل علاقته بالمال والولد مُقدَّمة على علاقته بالله مكر الله به في ماله وولده فلم يزده ماله وولده إلا خسارا، فقد قضى الله تعالى ألا يُعبد إلا إياه، وأن من أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

4.2.3. - مكنزمات النظام

لقد وصفنا نظام الإنسان في مكوناته، وبيئته، ونسيجه وتبقى أن نبين كيف يعمل هذا النظام ليحقق الغرض منه، وهو ابتلاء الإنسان في زينة الحياة الدنيا لينظر الله تعالى كيف يعمل فيها، أيعمل فيها صالحا فيكون شاكرا متحققا بالعبادة لربه، أم يفسد فيها ويسفك الدماء فيكون كافرا بنعمة ربه، أم ينقسم الناس بين هذا وذاك فمنهم كافر ومنهم مؤمن؟ أي نريد أن نقف على طبيعة المكنزمات التي وضعها الله في نظام الإنسان وكيف تعمل بحيث يدخل جميع الناس في الابتلاء.

* المكنزمات الضرورية للنظام هي مكنزمات "**البقاء**"، وتبدأ من حاجة الجسد إلى الوفاء بضروراته الحيوية من الغذاء ومن الوقاع حتى لا يهلك فينقرض النوع البشري. وهذه الضرورات الحيوية لا يمكن الوفاء بها إلا من مكونات زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، لذلك عندما يفتقر الجسد إلى ضروریاته الحيوية تُطلَق عمليات فيزيائية وكيميائية وحيوية داخل الجسد تعبر عن حاجة الجسد إلى الوفاء بالضرورة المعينة، سواء كانت مأكل، مشرب، ملبس، مسكن، أو وقاع. يقوم الجسد من جانبه بجعل النفس تحس بأهمية الوفاء بهذه الضرورة من خلال مكنزمات "**التشويش**" الحيوية على قوى النفس الأساسية التي تحتاج في توظيفها إلى الجسد، مثل قوى السمع، البصر، التفكير...إلخ حيث تضعف هذه القوى، بحسب مستوى حدة الضرورة الحيوية، إلى أن تتوقف تماما عن العمل. تلجأ النفس، للوصول إلى الوفاء بحاجات الجسد، إلى إطلاق مكنزمات نفسية تضطر الإنسان في كليته إلى الإسراع في الوفاء بتلك الحاجات، مثل مكنزم "**الجوع**"، مكنزم "**العُري**"، مكنزم "**الظمأ**"، مكنزم "**الإضحاء**"، ومكنزم "**العنت**" الجنسي. هذه المكنزمات النفسية بالغة الفعالية، إذ تُحدث كل منها ألما معينا يناسب نوع الضرورة الحيوية الواجب الوفاء بها حتى إن الإنسان ليعجز عن احتمالها، ومن ثم يُطلِق من جانبه المكنزم الأعظم، ألا وهي "**الفعل الاجتماعي**" الجالب لما هو مطلوب من حاجيات الجسد. هذا الفعل هو الذي يضمن تفاعل الإنسان مع بيئته الخارجية، وهو المراد من عمل كل هذه المكنزمات الفيزيائية والكيميائية والحيوية والنفسية.

* الجسد عندما يستوفي حاجاته الضرورية من خلال عمل المكنزمات الصاعدة منه، ومن النفس إلى البيئة الخارجية تبدأ مكنزمات معاكسة، جسدية ونفسية، في العمل حتى يتوقف الجسد عن تناول المزيد من مصادر تلك الضروريات الحيوية، فتنطلق عمليات فيزيائية وكيميائية وحيوية تناسب هذه الحال، وبدوره ينقل الجسد هذه المعلومات إلى النفس حتى تقوم هي بدورها في إطلاق المكنزمات المناسبة المنذرة للإنسان بالتوقف عن الفعل الذي كان. لكن النفس عند هذه المرحلة تكون قد ذاقت لذّة الشهوات الكامنة في زينة الحياة الدنيا التي سعى إليها الإنسان ابتداء للوفاء بضرورات الجسد الحيوية، ويبدأ نوع جديد من الطلب على "المال" و"البنين"، مركّب فوق طلب الضرورات الحيوية، ويتأسس على إشباع شهوات النفس من متاع زينة الحياة الدنيا، أهم مكنزماته هو "حب الشهوات"، أو "الهوى" الفطري في النفس البشرية.

* الفعل الاجتماعي الابتدائي الذي يبتدره الإنسان للوفاء بضرورات الجسد الحيوية يصله بجميع مكونات بيئته الخارجية: المال، البنون، الأرض، السماء، الوحي، الشيطان، ومن وراء ذلك يصله بالله الذي خلقه، صلة مباشرة ومن خلال السنن الاجتماعية. هكذا يدخل الإنسان في أتون الابتلاء قهرا لا اختيارا، ليحقق من بعد ذلك باختياره مسارات حياته فيه، ومآلاتها في الدنيا: حياة طيبة، أو معيشة ضنكا، ومآلاتها في الآخرة: فريق في الجنة وفريق في السعير. هذه المرحلة تشهد أيضا، بسبب تفاعل الإنسان مع أخيه الإنسان، ومع مكونات بيئته الخارجية، ومع البنية الرابطة بين هذه المكونات، نشأة المجتمعات، وتأطير الفعل الاجتماعي برؤية العالم التي يستبطنها الإنسان، ونظمها المعيارية والقيمية، وكذلك انبثاق قوى علاقاتية جديدة في النفس تناسب حالها في الابتلاء، وفي علاقتها بهذه المكونات، فالمؤمن بالله تعالى تنبثق في نفسه روابط ومكنزمات الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشية والإنابة، والحب..إلخ، وعلى الجملة يمكن أن نعبّر عن هذه الأحوال بأنها "ملهمات التقوى". ولكن بسبب علاقاته بزينة الحياة الدنيا، وبالشيطان تنبثق أيضا قوى علاقاتية تناسب هذه العلاقة، مثل الهلع، الشح، الكبر، الطمع، الحسد...إلخ، ويمكن إجمال هذه القوى بأنها "ملهمات الفجور". يتدافع هذان النوعان من القوى العلاقاتية في نفس المؤمن، ويحكم هذا التدافع تجربته الابتلائية، أما غير المؤمن فتهيمن "ملهمات الفجور" على نفسه في علاقته بمكونات بيئته الخارجية، وفي علاقته بربه.

* هذه المرحلة تشهد عمليات التدافع الاجتماعي من خلال الفعل والتفاعل الاجتماعي مما يؤدي إلى نشأة المجتمعات بنظمها الاجتماعية، والمعرفية، والاتصالية، والثقافية المختلفة، المتحيزة في الزمان والمكان، وانطلاق مكنزمات الابتلاء التي تعمل من خلال هذه النظم، إما بالمحافظة عليها، أو بتغييرها، أو بتدميرها، ولله عاقبة الأمور.

* الشكل رقم (6) أدناه يجسّد انبثاق الإنسان كنظام معقّد من خلال تفاعل مكوناته المتمثلة في النفس والجسد مع بيئة عالم الشهادة (المال، البنون، الوحي، الأرض، السماوات)، ثم مع بيئة عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة)، ثم من وراء ذلك الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

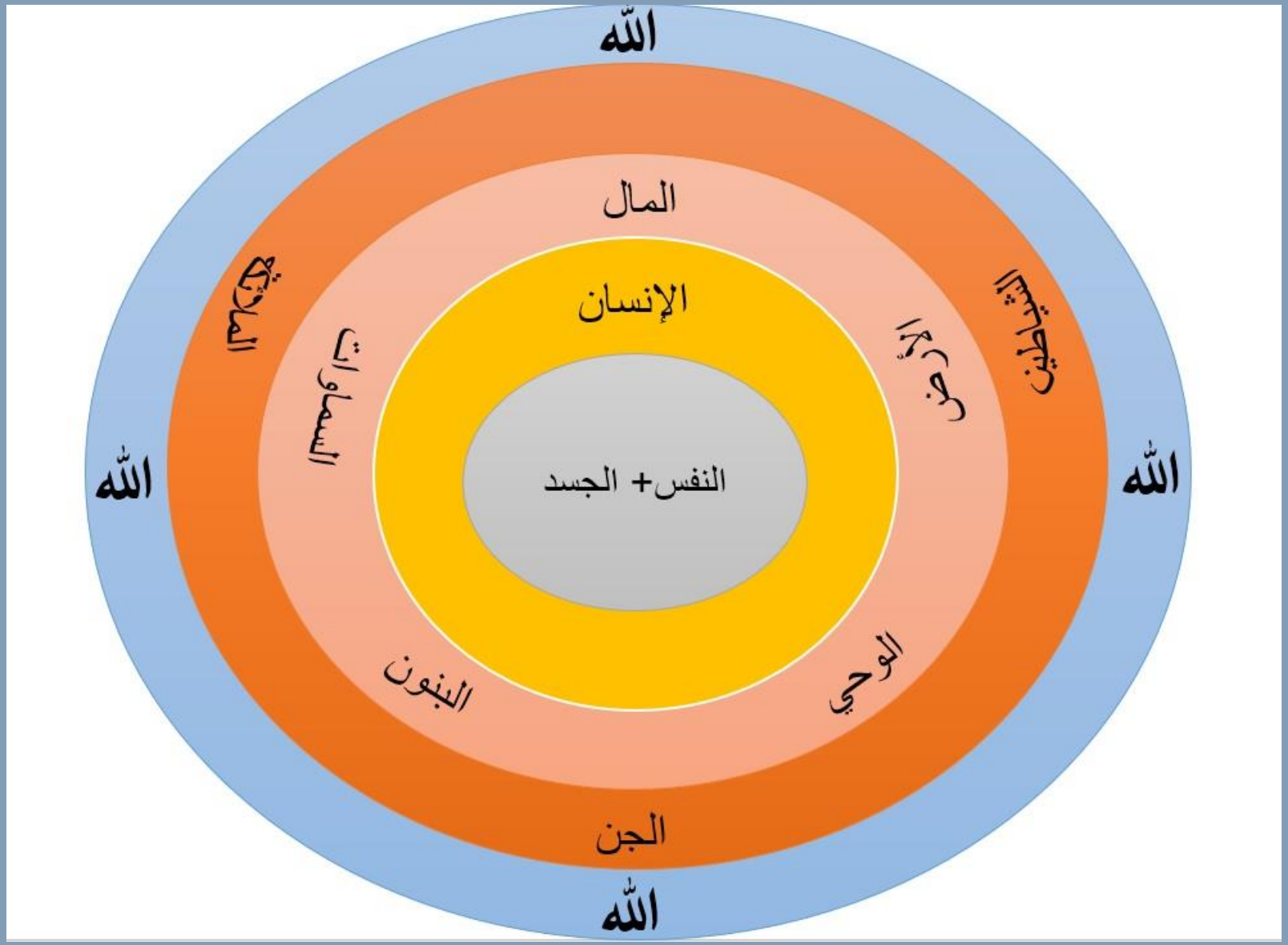
الله
المال
الإنسان
النفس+ الجسد
الملائكة
السماوات
الأرض
الشياطين
الله
الله
البنون
الوحي
الجن
الله

3.3. - مدخل إلى النظم الاجتماعية الكلية من خلال المنهج النظمي

* الفائدة الحقيقية من هذا التمرين النظري هي فائدة منهجية، إذ تصبح هذه النظم الكلية هي الضابط لأي تنظير يتعلق بنظم جزئية تنشأ من داخلها، ابتداء من النظام النفسي للإنسان، مرورا بالفعل والتفاعل الاجتماعي، والنظم الاجتماعية الجزئية الوسيطة التي يؤدي إليها، سواء كانت مؤسسات كالأسرة، أو منظمات كالمدرسة والشركة، وانتهاء بالنظم الجزئية الأعم كالنظام التربوي، النظام الاقتصادي، النظام الثقافي، النظام السياسي...إلخ.

1.3.3. - النظام الاجتماعي العام

* الشكل رقم (2) أدناه يمثل نموذج النظام الاجتماعي العام المستخلص من "خطة الخلق العامة" التي يمثلها النموذج في الشكل رقم (1) أعلاه، المستخلصة بدورها منهجيا من القرآن الكريم. إن النظام الاجتماعي العام الذي يعبر عنه النموذج في الشكل رقم (2) هو نظام اجتماعي مثال (Ideal Type) على منهج (ماكس فيبر)، نفترض أنه يبدأ في العمل من اللحظة صفر، وهي اللحظة التي تكون فيها جميع المكونات الوجودية ل"خطة الخلق العامة" قد اكتملت كما كانت في العلم الإلهي، وأَذِن الله تعالى للخطة أن تبدأ في العمل بمقتضى ذلك العلم، رغم أن ذلك قد تم في الواقع الزماني والمكاني على التراخي الذي امتد، وما زال يمتد زمانا إلى مليارات السنين، وتمدد، وما زال يتمدد مكانا في الكون كله. الغرض من هذا التأطير النظري هو الوقوف على طبيعة التفاعلات التي تتم في فضاء الاجتماع الإنساني عندما يسوده هذا النظام الاجتماعي المثال بحيث يؤدي هذا التفاعل، في الزمان والمكان، إلى واقع اجتماعي مُعيّن دون غيره، علما بأن منتهى (limits) هذا النظام الاجتماعي الفطري المثال هو أحد نظامين اجتماعيين مثالين، هما النظام الاجتماعي الدنيوي (شكل رقم-3)، والنظام الاجتماعي التوحيدي (شكل رقم-4).

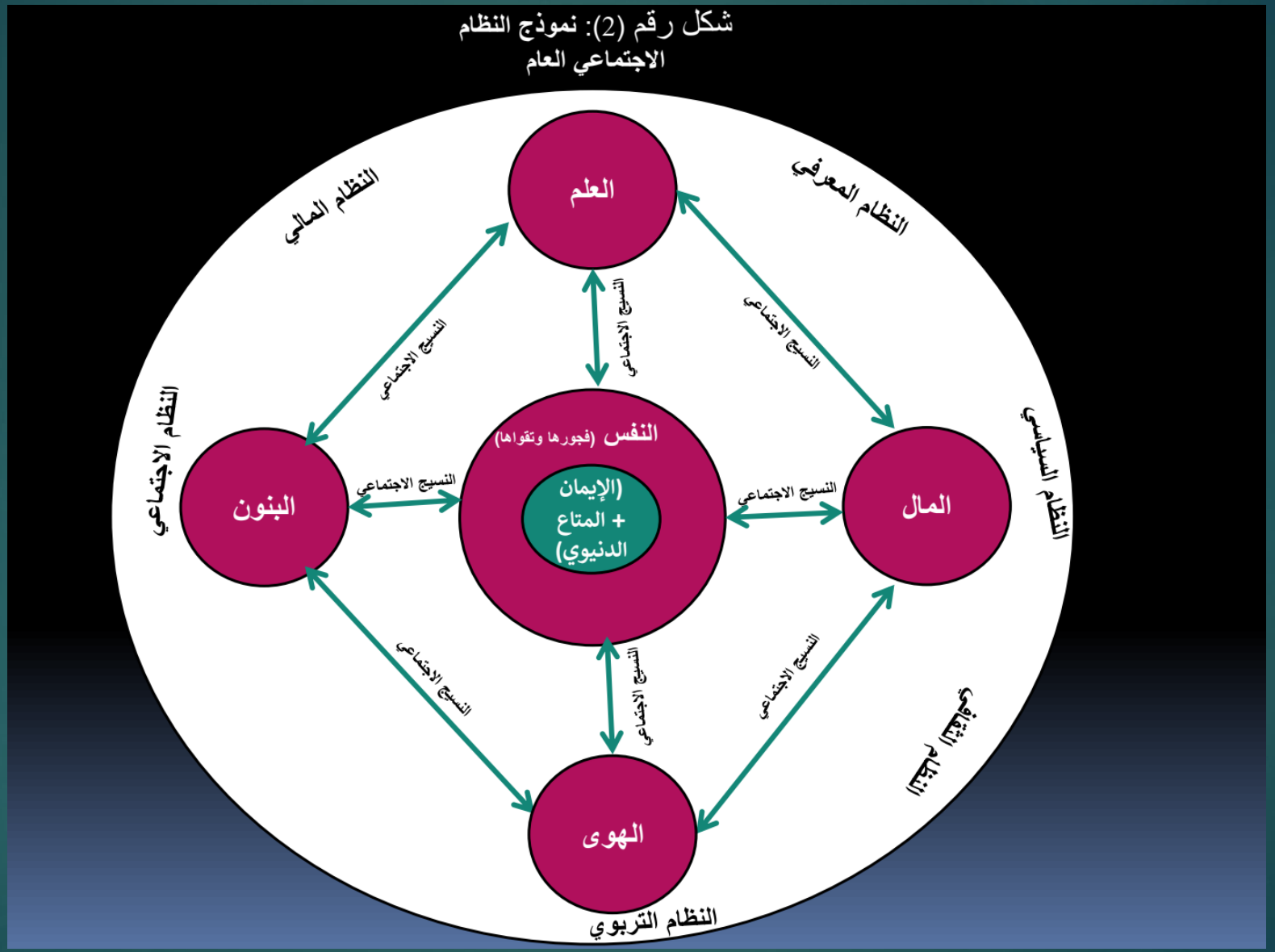
شكل رقم (2): نموذج النظام
الاجتماعي العام
العلم
المال
البنون
الهوى
النفس (فجورها وتقواها)
(الإيمان
+ المتاع
الدنيوي)
النسيج الاجتماعي
النظام المعرفي
النظام السياسي
النظام الاقتصادي
النظام التربوي
النظام الاجتماعي
النظام المالي

* النظام الاجتماعي العام هو نظام افتراضي، والغرض من التحليل هو أن نقف على طريقة عمل النظام لتحقيق وظائفه المفترضه، ولمعرفة اتجاهات التغيير فيه، والمكنزمات الفاعلة في النظام، في غياب الوحي الإلهي من السماء مما يتبين معه ضرورة إرسال الرسل، ونزول الوحي بهداية السماء إلى الناس. الوظيفة الأساسية لهذا النظام، في غياب هداية الوحي، هي تمكين الناس الذين يكوّنونه من إشباع حاجاتهم الحيوية، والاجتماعية، والروحية. وهذه الأخيرة ناجمة عن وجود الصفات الإلهية في النفس فطرة تربط الإنسان بعالم الغيب، وتدعوه إلى الوفاء بحقها في نفسه، وفي بيئته الداخلية والخارجية، أيا كان الغيب الذي يؤمن به، ويأوي إلى أمانه.

1.1.3.3. - مكونات النظام

يتكون النظام من الناس، ومما عملته أيديهم في موارد الطبيعة، ونفترض أنهم جميعا على الفطرة، أي لا مؤمنين ولا كافرين، ولكن لديهم إمكان أي من الخيارين، كما نفترض عدم نزول أي وحي من السماء للتأثير على خياراتهم الحياتية. هذا يعني اقتصار علمهم على مكونات بيئة عالم الشهادة فقط رغم وجود عالم الغيب وتأثير مكوناته عليهم.

2.1.3.3. - بيئة النظام

تتكون بيئة النظام من بيئتين، بيئة من عالم الشهادة تتمثل في الأرض والسماء، وبيئة من عالم الغيب تتمثل في الشياطين خاصة، والجن عموما، والملائكة، ثم الله تعالى من ورائهم محيط. الشكل رقم (6) أعلاه يجسد هذا البناء الوجودي في عالم الإنسان، علما بأن "المال" و"البنون" أصبحا في صلب تركيبة النظام الاجتماعي بعد أن كانا جزءا من مكونات بيئة عالم الشهادة في نظام الإنسان الذي سبق هذا النظام، وتعرفنا عليه أعلاه. لذلك اقتصرت بيئة عالم الشهادة على مكونين فقط لهذا النظام، هما الأرض والسماء، وتحوّل متغيرا "المال" و"البنون" إلى نظم اجتماعية جزئية بما عملته يد الإنسان فيهما – الفعل والتفاعل الاجتماعي- كالنظام التربوي، الاقتصادي، الاجتماعي، السياسي، والثقافي.

3.1.3.4- نسيج النظام

يتكون نسيج النظام (بنيته) من جملة العلاقات الداخلية التي تربط مكونات النظام مع بعضها، وكذلك جملة الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام مع مكونات بيئته الخارجية. الروابط الداخلية بين الأفراد المكونين للنظام تحددها طبيعة العلاقة الاجتماعية التي تؤطر وتحدد نوع الروابط في إطار الفعل والتفاعل الاجتماعي مع زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، ففي إطار متغير "البنين" المعبر عن العلاقات البيولوجية بين الرجال والنساء، وما يترتب عليها من علاقات رحمية هناك الروابط العاطفية من مودة ورحمة بين المرء وزوجه مثلا، وكذلك علاقات حب وكراهية تتسم بها العلاقات الرحمية...إلخ. النسيج الذي يربط مكونات النظام مع متغير "المال" المعبر عن علاقات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك هناك روابط الفعل الاجتماعي مثل المشاركة والتعاون والتشاور، التنافس والصراع، التبادل والإعلام، التراضي والإكراه، الخضوع والثورة...إلخ. وهناك الروابط العقدية التي تربط بين أصحاب المعتقد الواحد، وهناك الروابط المعيارية (أخلاقية، قانونية) تضبط العلاقات بين الناس.

روابط الفعل الاجتماعي هي روابط من حيث إنها تجمع بين شخصين، أو أكثر، في إطار النظم الاجتماعية الجزئية الضرورية التي تحتمها طبيعة التفاعل بين العناصر الكونية المنتجة للاجتماع الإنساني، كما بينا ذلك في رؤية القرآن للعالم، وهي: النفس (الإنسان)؛ المال؛ البنون؛ العلم؛ الهوى. هذه الروابط بطبيعتها ديناميكية تؤدي إلى إحداث تغيير في الذين تربطهم، وفي البنية الاجتماعية التي تؤطرهم.

* الروابط الخارجية هي روابط بين الناس المكونين للنظام الدنيوي من جهة وبين مكونات بيئة عالم الشهادة، وبيئة عالم الغيب، ثم الله تعالى من جهة أخرى. الروابط الفاعلة في بيئة عالم الشهادة هي بين الناس وبين موارد الأرض الطبيعية، وهي علاقة نفعية يتم فيها توظيف العلم بظاهر من الحياة الدنيا الذي يكتسبه المجتمع من خلال الفعل والتفاعل بين أفراده، وبينهم وبين بيئتهم الخارجية، لإشباع حاجاتهم الفطرية. والعلم بظاهر من الحياة الدنيا يظل دوره وظيفيا فقط، وخاضع لإله الهوى مهما تطور وعي المجتمع ليأخذ بعدا عقلانيا في علاقاته الاجتماعية.
* الروابط الأخرى مع البيئة الخارجية، في غياب الوحي، تحتمل كل أنواع الاعتقاد، وهي أساسا علاقة خضوع لقوى غيبية، تتسم بالخوف والرجاء، فقد تكون القوة الغيبية هي الإله الواحد، وقد تكون الجن، وقد تكون الشمس والقمر، وقد تكون النار، وقد تكون أساطير الأولين. ذلك أن الضعف الذي يلازم الإنسان فطرة يلجئه إلى البحث عن ظهير تتجسد فيه القوة التي يفتقدها، وغالبا ما تكون هذه القوة غيبية يمنحها خيال الإنسان كل ما يريده من صفات الكمال التي يفتقدها.

4.1.3.3- مكنزمات النظام

* نوعان من المكنزمات الابتدائية التي تنجم عن تفاعل الإنسان مع عنصر (البنين) في زينة الحياة الدنيا، النوع الأول يتمثل في مكنزمات "**حب الشهوات**"، لا سيما شهوة "**الجنس**"، وشهوة "**البنوّة**"، التي تؤدي إلى إقامة المؤسسات الرحمية كالأسرة، والرهط والقبيلة...إلخ. النوع الثاني من المكنزمات يمكن تسميتها بالمكنزمات العاطفية، مثل "**المودة**" و"**الرحمة**"، التي تعمل عل استدامة العلاقة الزوجية بين الزوجين، و"**الغيرة**" التي منها المحمود ومنها المذموم. إن افتراض عدم وجود وحي الهداية من السماء يجعل هذه المكنزمات، لا سيما حب الشهوات، تحدث أنواع شتى من التغيير الاجتماعي أساسه التكاثر في الأموال والأولاد، مما ينتج مكنزمات أخرى مثل " **الإثم**" و"**العدوان**"، وهي مكنزمات الصراع الاجتماعي التي تؤدي إلى نقض عرى المجتمع. والمطلوب من البحث العلمي النُظمي دراسة كيف تنشأ مثل هذه المكنزمات داخل النظم الاجتماعية، وكيف تعمل بما يؤدي إلى تفسير عميق للظواهر الاجتماعية المعبرة عن التغيير الاجتماعي الذي تحدثه في مكونات ونسيج المجتمع محل الدراسة.

* مكنزمات "**حب الشهوات**" في مجال (المال) تؤدي إلى التكاثر في الإنتاج، والاستهلاك، ومن ثم قيام نظم الملكية المختلفة لعناصر الإنتاج، ولوسائله، ولعلاقاته، ونظم التبادل السلعي كالأسواق. كل هذه النظم لها مكنزماتها، وهي، في غياب الوحي، يغلب أن تكون مكنزمات "**الصراع**"، "**التنافس**"، "**الطغيان**"، أو، بلغة القرآن الكريم، مكنزمات "**التعاون على الإثم والعدوان**" و"**العلو في الأرض**"، وهي في جملتها عمليات اجتماعية تؤدي إلى التمايز الطبقي الذي يؤدي بدوره إلى مكنزمات جديدة تنتهي بهدم المجتمع. طبعا لا يمنع هذا أن تكون هناك مكنزمات حافظة للمجتمع تعمل في الاتجاه المعاكس، في ذات الوقت مثل مكنزمات "**التعاون**"، "**المشاركة**"، "**الصلح**"...إلخ، مما يقلل من أثر المكنزمات الهادمة له، لكنها مكنزمات لا تصمد أمام الأثر الاجتماعي المدمر للمكنزمات الجوهرية المحددة لهوية هذا النوع من النظم، وهي كما بيّنا مكنزمات "**حب الشهوات**"، و"**التكاثر**" في الأموال والأولاد.

* المكنزمات الداخلية أعلاه تتداخل معها، سلبا وإيجابا، مكنزمات خارجية تنتج من تفاعل النظام الاجتماعي العام مع مكونات بيئته الخارجية، ومع الخالق المتعالي، وهو تداخل يحدد الحال (State) التي عليها النظام الاجتماعي في لحظة زمانية ومكانية محددة. الكائن الخارجي الأكثر تأثيرا في علاقته بالإنسان، في غياب الوحي افتراضا، هو الشيطان، عدو الإنسان منذ الخلق الأول: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ١١٧﴾ (طه)، وهو مسلّط على بني آدم إلى قيام الساعة، ومأذون له في مشاركتهم حتى في الأموال والأولاد: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا٦٤﴾ (الإسراء). هذه الآية وحدها تذكر أربعة أنواع من المكنزمات الفعالة التي يستخدمها الشيطان ضد الإنسان، وهي في إطار النظام الاجتماعي العام الذي نستعرض ملامحه هنا لا يكاد ينجو من تأثيرها المدمر أحد، وهي: **"الاستفزاز بالصوت"**؛ **"الجلب بالخيل والرجِل"**؛ **"المشاركة في الأموال والأولاد"**؛ **"الوعد"**.

* المكنزمات الجوهرية الفاعلة في العلاقة المباشرة بين الخالق سبحانه وتعالى وبين النظام الاجتماعي العام من خلال مكوناته ونسيجه هي مسارات فعل في اتجاه واحد من الرب إلى العباد، وهي مكنزمات "**الرحمة**"، و"**الرأفة**"، فما كان الله ليعذبهم رغم ضلالهم حتى يبعث رسولا، وقد افترضنا عدم إرسال الرسول في هذا النظام الفطري. وقد قال الله تعالى إنه بالناس رؤوف رحيم، وهي رحمة عامة في هذه الدنيا لكل الناس، لاتترتب عليها هداية. ومكنزمات الرحمة الإلهية لا يحصيها إلا الله، وقد قال تعالى "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها". ومن مكنزمات الرحمة مكنزم "**التسخير**"، فقد قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ١٣﴾ (الجاثية)، ومكنزم "**التمكين**": ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ١٠﴾ (الأعراف).

* هناك العلاقة غير المباشرة بين الناس وبين ربهم، ومكنزماتها هي السنن الاجتماعية الحاكمة لجميع النظم الاجتماعية بما فيها النظام الاجتماعي العام الذي نتعرف عليه الآن، وهي سنن لا تتبدل، ولا تتحول: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا٤٣﴾ (فاطر). مثال لهذه السنن العامة سنة **"التدافع"**: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ٢٥١﴾ (البقرة).

* ينتهي استعراضنا لأهم سمات النظام الاجتماعي الفطري العام إلى أنه نظام، إذا ترك دون تدخل من خارجه إلا من الشيطان، تنتهي تطبيقاته العملية في الزمان والمكان إلى نظم اجتماعية دنيوية بحكم الفطرة البشرية، وبحكم البنية الاجتماعية للنظام، سواء في العلاقات الداخلية بين مكونات النظام، أو في علاقة مكونات النظام مع مكونات البيئة الخارجية، وبمقتضى المكنزمات التي تتحكم في عمليات التغيير الاجتماعي. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات كثيرة، كما يقف تاريخ الاجتماع الإنساني شاهدا على ذلك. إذن قضاء الله تعالى ألا يعبد الناس إلا إياه يقتضي إنزال الوحي من السماء، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين.

2.3.3. - النظام الاجتماعي الدنيوي

* هذا النظام يمثله الشكل رقم (3) أدناه، وهو أحد نهايات النظام الاجتماعي الفطري العام، ويتأسس على فرض نزول الوحي، وإرسال الرسل، واستحباب الناس الذين يكوّنون هذا النظام الكفر على الإيمان، فهو إذن نظام اجتماعي مصنوع، وليس فطري، بل تم تصميمه ليحقق مقاصد حياتية محددة. الأوفق أن نبدأ برصد الخواص الوجودية والمعرفية والمنهجية التي أثبتها القرآن الكريم لهذا النظام، ثم توظيف هذه الخواص في التعرف على سماته النظمية. لقد أثبت القرآن الكريم لهذا النظام الاجتماعي الدنيوي الحقائق الآتية:

1- **إيثار الحياة الدنيا على الآخرة؛**
2- **تعظيم متاع الحياة الدنيا** كمقصد نهائي للناس الذين يتكون منهم النظام؛
3- **العلم الحسّي التجريبي هو أساس النظام المعرفي؛**
4- **جميع أعمالهم سيئة**، بالتصنيف القرآني للعمل؛
5- **الإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام** هو المحصلة النهائية للنظام.

شكل رقم (3): نموذج
نظام الاجتماع الدنيوي

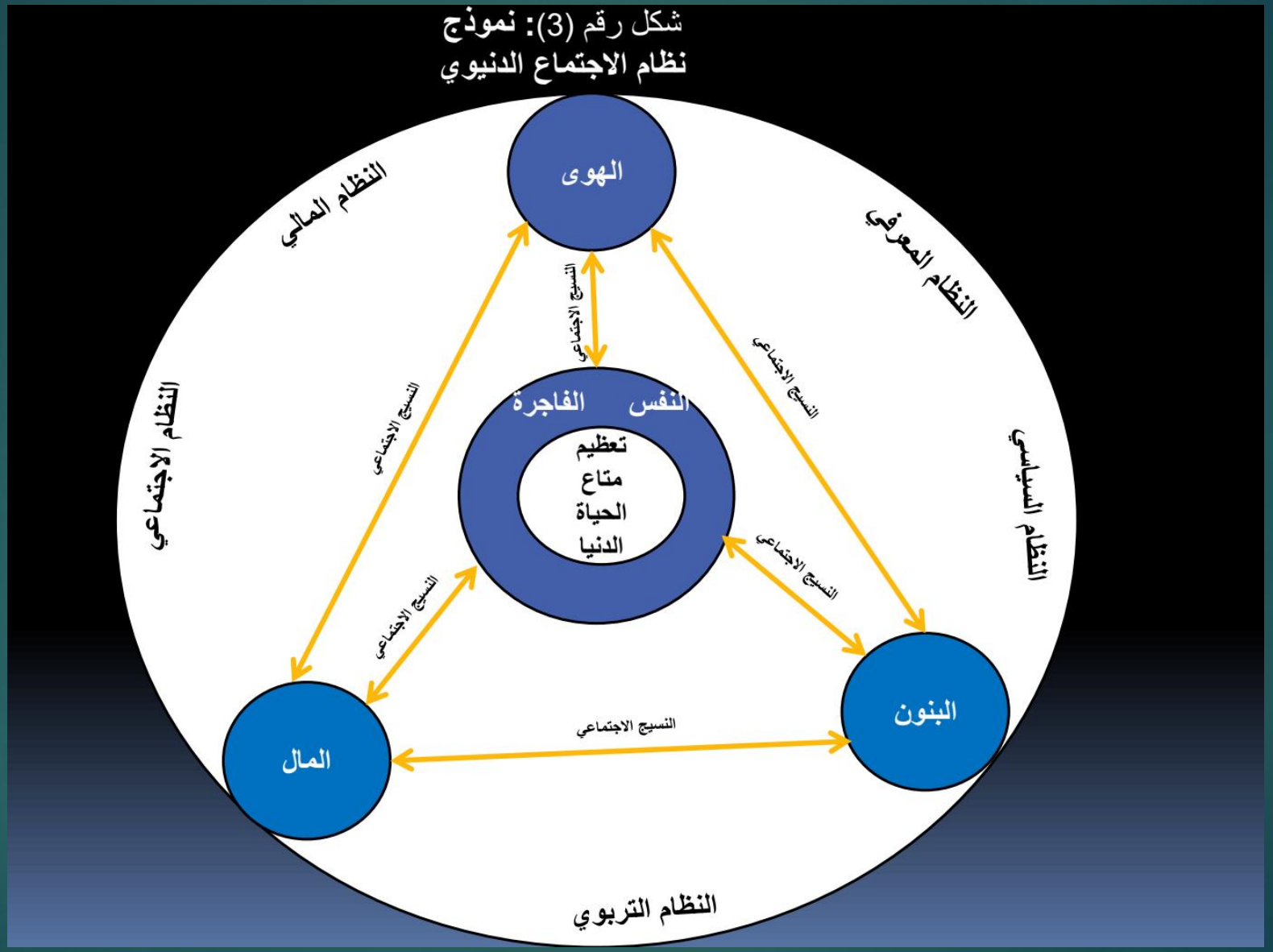

1.2.3.3. - مكونات النظام

* يتكون النظام الاجتماعي الدنيوي المثال (Ideal Type) من ناس تنطبق عليهم الخواص الخمسة أعلاه، فعالم الشهادة هو وحده المحدد لرؤيتهم للعالم، وتعظيم متاع الحياة الدنيا هو وحده مقصدهم، والعلم بظاهر من الحياة الدنيا هو وسيلتهم، وملهمات الفجور في النفس هي هاديهم إلى الفعل والتفاعل الاجتماعي.

2.2.3.3. - بيئة النظام

* تشمل بيئة النظام مكونات عالم الشهادة (الأرض، السماء، الوحي)، ومكونات عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة)، ثم الله المتعالي عالِم الغيب والشهادة. ينبغي التنبيه إلى أن "المال" و"البنون" يظهران في الشكل رقم (6) كمكونين من مكونات بيئة عالم الشهادة لنظام الإنسان، لكنهما هنا يصيران في صلب تركيبة النظام الاجتماعي، لذلك لا يشكلان مكونين من مكونات بيئته الخارجية، بل يظهرا في شكل نظم اجتماعية جزئية بما عملته يد الإنسان فيهما.

3.2.3.4- نسيج النظام

* يتكّون نسيج النظام (بنيته) من جملة العلاقات الداخلية التي تربط مكونات النظام مع بعضها، وكذلك جملة الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام مع مكونات بيئته الخارجية، مما يعني أن لدينا نسيج داخلي، وآخر خارجي. البيئة الخارجية للنظام تأتي على ثلاثة مستويات، بيئة عالم الشهادة المكونة من الأرض، السماوات والوحي، وبيئة عالم الغيب المكونة من الشياطين، الجن والملائكة، ثم الروابط التي تربط الناس بخالقهم تبارك وتعالى.

* إن افتراض نزول الوحي، وإرسال الرسل بالبلاغ، ودعوة الناس لعبادة الله وحده، وإقامة دين التوحيد في الواقع الاجتماعي، مقرونا بافتراض تكذيب الناس للرسل، واستحباب الكفر على الإيمان، ومن ثم إقامة نظام اجتماعي يحكمه هوى الناس الذين يكوّنونه يُحدث فرقا جوهريا في التحليل عما فعلناه في النظام الاجتماعي الفطري. الوحي يحدد نظاما عقديا، وآخر معياريا، أخلاقيا وقانونيا، بمقتضاه تنشأ أحكام طبيعتها "أفعل" ولا "تفعل" تحكم الفعل والتفاعل الاجتماعي، وتصاغ مؤسسات وتنظيمات تيسر هذا الفعل والتفاعل، فمن رضي بهذا النظام الاجتماعي وأقامه فهو مؤمن، ومن ردّه فهو كافر، وهو ما افترضناه في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي الذي نحن بصدد تحليله. وكلا الموقفين تنبني عليه علاقة بين الله تعالى وبين عباده تصبغ كل شيء في النظامين: المكوّنات؛ البيئة؛ النسيج؛ المكنزمات؛

* العلاقات الرابطة في مجال المال في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي جوهرها أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا، والكنز، والتطفيف في المكيال والميزان، وكل أنواع الغرر، وعدم الوفاء بالعقود في مجال الإنتاج والتوزيع، والتمتع والأكل كما تأكل الأنعام في مجال الاستهلاك، وتوظيف المال في المسافحة واتخاذ الأخدان، وإكراه النساء على البغاء، وكل أنواع تجارة الجنس الجالبة للمال الحرام، المؤدية إلى الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام مما ذكر القرآن الكريم. هناك أيضا علاقات مالية تقوم على بطش الجبارين وما تؤدي إليه من حروب فيها الغالب والمغلوب، والناهب والمنهوب، والقوي والمستضعف، وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة عديدة لهذا النوع من العلاقات المالية في النظم الاجتماعية التاريخية للبشرية.

* العلاقات الجوهرية الرابطة في مجال البنين هي ابتداء علاقات بيولوجية جنسية تربط الرجال بالنساء، وهي في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي طابعها الغالب هو الفحشاء والمنكر، سواء كانت علاقات طبيعية بين الرجال والنساء، أم غير طبيعية كالمثلية، وزنا المحارم، وقد صدّق تاريخ المجتمعات البشرية، لا سيما ما بين أيدينا منها، كل ذلك؛ ما وثّقه القرآن منها، وما دونته الأقلام، حتى إن الله تعالى أنزل قرآنا يحرّم زنا المحارم.

* الروابط الرحمية المترتبة على الروابط الجنسية طابعها العصبية الجاهلية، وفي إطارها نجد علاقات الحب، والولاء والبراء، والنصرة، والبغضاء، والبغي، والإثم والعدوان...إلخ. وهناك الروابط العقدية التي تربط بين أصحاب المعتقد الواحد، وهي معتقدات وثنية، كفرية وشركية. وهناك الروابط المعيارية (أخلاقية، قانونية) يضع أسسها الملأ النافذ في المجتمع، تضمن حماية مصالحه، وتحدد العلاقات بين الناس: وفوق كل ذلك هناك روابط الفعل الاجتماعي في النظم الجزئية (اقتصادية، سياسية، تربوية، معرفية، ثقافية) مثل المشاركة والتعاون والتشاور، التنافس والصراع، التبادل والإعلام، التراضي والإكراه، الخضوع والثورة...إلخ.

* العلاقات الرابطة في مجال المال في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي جوهرها أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا، والكنز، والتطفيف في المكيال والميزان، وكل أنواع الغرر، وعدم الوفاء بالعقود في مجال الإنتاج والتوزيع، والتمتع والأكل كما تأكل الأنعام في مجال الاستهلاك، وتوظيف المال في المسافحة واتخاذ الأخدان، وإكراه النساء على البغاء، وكل أنواع تجارة الجنس الجالبة للمال الحرام، المؤدية إلى الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام مما ذكر القرآن الكريم. هناك أيضا علاقات مالية فرعونية، قارونية تقوم على بطش الجبارين وما تؤدي إليه من حروب فيها الغالب والمغلوب، والناهب والمنهوب، والقوي والمستضعف، وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة عديدة لهذا النوع من العلاقات المالية في النظم الاجتماعية التاريخية

* الشكل رقم (6) يبين أن النسيج الخارجي للنظام الدنيوي ينبني على علاقات ثلاث، إحداها بين مكونات النظام ومكونات عالم الشهادة، لاسيما الأرض والسماوات، لأن مكوّن الوحي قد تم الإدبار عنه من قِبل مكوني النظام، فعلاقتهم به هي علاقة **"إدبار"**، والثانية مع مكونات عالم الغيب من الجن والشياطين والملائكة، ثم الأخيرة علاقة مع الله تعالى، عالم الغيب والشهادة. روابط الإنسان الدنيوي بالأرض والسموات طبيعتها **"الإفساد"** فيهما بسبب النظر إليهما فقط كمصدر للموارد المادية التي هي أساس تعظيم المتاع الدنيوي، الذي مكنزماته **"اتباع الهوى"**، و**"حب الشهوات"**.

* الروابط مع عالم الغيب أهمها تلك التي تربط مكوّنات النظام الاجتماعي الدنيوي بالشيطان، عدو الإنسان، وهي علاقات **"ولاية"** من قِبل الإنسان، وعلاقة **"استحواذ"** من قِبل الشيطان، ويجمعهما علاقة **"القرين"** بالقرين.

* هناك أيضا روابط مع الجن عموما طبيعتها **"الولاية"** ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا٦﴾ (الجن)؛ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ٤١﴾ (سبأ)؛ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ١٢٩﴾ (الأنعام).

* العلاقة بين الله تعالى وبين الناس المكوّنين للنظام الاجتماعي الدنيوي هي في جوهرها علاقة "**عداء**": ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ٩٨﴾ (البقرة)؛ وهي علاقة "**مكر**": ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ٣٠﴾ (الأنفال)؛ هناك أيضا علاقة "**الكيد**" و"**الاستدراج**": ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا١٦﴾ (الطارق)؛ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٞ١٨٣﴾ (الأعراف)؛ ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ٤٢﴾ (الطور)؛ ثم هناك علاقة "**الاستهزاء**": ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ١٥﴾ (البقرة)، وعلاقة "**النسيان**": ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ٦٧﴾(التوبة)؛ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ١٩﴾ (الحشر).

4.2.3.3. - مكنزمات النظام

* النتيجة الجوهرية من التحليل السابق هي أن البنية، أو النسيج في النظام الاجتماعي لا يقتصر فقط على النسيج الاجتماعي المبني على روابط الفعل والتفاعل الاجتماعي بين الناس كما تدعي الفلسفة المادية، بل يتمدد هذا النسيج في عالم الغيب فيشمل روابط هي أقوى بكثير من تلك التي تربط بين الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إذن ليس هناك نظام اجتماعي بشري، في الرؤية القرآنية للعالم، إلا وله مكوّن وجودي غيبي هو جزء من نسيجه، وجزء من مكنزماته، ومن ثم يؤثر سببيا في طريقة عمل النظام، وفي الأحداث التي تكتنفه، والتغيير الذي يجري فيه، وفي نتائجه المقصودة وغير المقصودة. إذن لا تستقيم الدراسة العلمية للنظام الاجتماعي إلا بأخذ هذه الأبعاد الغيبية في الاعتبار، وهو أمر يثير تحديات منهجية حقيقية لا يمكن التعامل معها من خلال المناهج التي تفترض أن النظام الاجتماعي هو نظام مادي بحت، مثله مثل أي نظام طبيعي، كما يؤكد ذلك "ماريو بنج" في منهجه النُظمي الذي استعرضناه في بحثنا السابق لهذا البحث. وهذا لا يعني عدم الاستفادة من هذه المناهج بل المطلوب تطويرها في إطار نظريات وجودية ومعرفية ومنهجية تؤسس على رؤية القرآن للعالم التي منها تم استنباط النظم الاجتماعية التي نعكف في هذا البحث على دراستها.

* المكنزمات التي تعمل في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي تأتي على أربعة مستويات، المستوى الأول هو المكنزمات الاجتماعية الداخلية الناتجة عن الفعل والتفاعل الاجتماعي بين مكونات النظام، والمستوى الثاني في إطار الروابط مع بيئة عالم الشهادة ممثلة في الأرض والسماء، والمستوى الثالث مع البيئة الغيبية ممثلة في الشياطين، الجن والملائكة، والمستوى الرابع هو مستوى الروابط بين الناس والخالق تبارك وتعالى.

* المكنزمات التي تنشأ في إطار العلاقات الداخلية للنظام تأتي على ثلاثة مستويات؛ مستوى (جزئي- جزئي) ويتعلق بالمكنزمات التي تنتج الفعل الاجتماعي الفردي؛ مستوى (كلي- جزئي) ويتعلق بالمكنزمات الاجتماعية التي تؤطّر الفرد وفعله، سواء على المستوى الأخلاقي والقانوني، أو المستوى الثقافي، أو الفرص التي يتيحها الواقع الاجتماعي أمام الفعل المعيّن في الزمان والمكان؛ مستوى (جزئي- كلي) ويتعلق بالمكنزمات التي تؤدي بالفعل الاجتماعي إلى إحداث التغيير الاجتماعي في بنية النظام، ومن ثم في النظام الاجتماعي ككل. مكنزمات التغيير الاجتماعي قد تأخذ طابع العشوائية إن جاءت من عوامل استثنائية مثل التغيرات المناخية، أو تكون نتيجة تطور طبيعي متراكم في المجتمع فتأخذ طابع "**الإصلاح**" الاجتماعي، وقد تأخذ طابع "**الثورة**"، ولكن في كل الأحوال فإن النظام الدنيوي، الذي استحب الناس فيه الكفر على الإيمان، سوف يظل يعيد إنتاج نفسه، وإن اختلفت صورته في الزمان والمكان، وربما لهذا السبب كان ذلك الدعاء الخالد من سيدنا نوح، عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا٢٧﴾ (نوح).

* المكنزمات في هذا المستوى يمكن أن نجملها تحت مسمي مكنزمات **"حب الشهوات"**، وأي مكنزمات أخرى مكملة لها ينشؤها المجتمع لتيسير هذا المقصد الدنيوي الجوهري المحدد لهوية النظام، والمتمدد في كل النظم الاجتماعية الجزئية (تربية، اقتصاد، سياسة، ثقافة...إلخ). وهي مكنزمات تنشأ على المستوى النفسي، وقد ذكرنا سابقا في هذا البحث تلك المكنزمات الفطرية التي تدفع الإنسان إلى ابتداء الفعل الاجتماعي الموصل إلى زينة الحياة الدنيا (المال، البنون) تلبية للحاجات الفطرية للجسم البشري، وأن ذلك يؤدي بالضرورة إلى إقحام الإنسان في ابتلاء حب الشهوات الثاوي في هذه الزينة، لتبدأ من بعد ذلك، من خلال التفاعل الاجتماعي، أولى الخطوات نحو ظهور المجتمعات البشرية بكل تعقيداتها.

* المستوى الثاني من المكنزمات تعمل على مستوى الروابط بين مكونات النظام وبيئة عالم الشهادة ممثلة في الأرض والسماوات، ويمكن إجمالها تحت مسمى مكنزمات "**الفساد**": ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ٤١﴾ (الروم). هذا الفساد سببه هو أن الفعل والتفاعل الاجتماعي في هذا النظام الدنيوي يتأسس على اتباع الهوى، وإشباع النفس من شهوات المتاع الدنيوي، سواء كان مصدره موارد الأرض، أو موارد السماء، وما عملته يد الإنسان في هذه الموارد من قيمة مضافة. وهذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر يمكن أن يتمدد إلى إفساد السماوات ومن فيهن لولا أن الحق لا يتبع أهواء الناس: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ٧١﴾ (المؤمنون).

* المستوى الثالث من المكنزمات هو المستوى الذي ينشأ من تفاعل الإنسان الدنيوي مع الشيطان، وهي مكنزمات تتأتى من الروابط البنيوية بين الشيطان وبين مكونات النظام الدنيوي كما بيناها أعلاه، ومن خلال هذه المكنزمات يؤثر الشيطان بصورة فعالة في خيارات الفعل الاجتماعي المختلفة التي يقوم بها الناس، ومن ثم في أفعالهم ونتائجها. لقد ذكر القرآن الكريم المكنزمات التي يوظفها الشيطان للإيقاع بالإنسان، منها "**الأمر**" المباشر، ومنها "**التزيين**" في الأرض، ومنها "**الاستفزاز**" بالصوت، ومنها "**الجلب**" بالخيل والرجِل، ومنها "**المشاركة**" في الأموال والأولاد، ومنها "**الوعد**"، ومنها "**الأز**": ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا٨٣﴾ (مريم)...إلخ. هذه المكنزمات الشيطانية الفعالة، التي لا يراها الإنسان، تعمل داعمة للمكنزمات الاجتماعية المتولدة في النظام الدنيوي، التي بحكم هوية هذا النظام تعمل على عدم استقراره، وتنتهي بهدمه مثل مكنزمات "**التعاون على الإثم والعدوان**"، ومكنزمات "**الفحشاء**" و"**المنكر**" و"البغي". كل هذه المكنزمات الاجتماعية أثبتها القرآن الكريم لهذا النظام الاجتماعي الدنيوي، ويمكن تفصيلها إلى مكنزمات محددة تعمل في مختلف النظم الجزئية (تربوية، اقتصادية، رحمية، سياسية، ثقافية)، وتنتهي بالنظام إلى الإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام.

* المستوى الرابع من المكنزمات الفاعلة في النظام الاجتماعي الدنيوي هي تلك التي تأتي في إطار الروابط بين الله تعالى وبين مكونات النظام، وهي مكنزمات يسخرها الله تعالى في إطار علاقة العداء بينه وبين البشر الذين يكوّنون هذا النظام، والحركة الكونية كلها داخلة في منظومة هذه المكنزمات، بما في ذلك الفعل والتفاعل الاجتماعي الصادر عن الفاعلين في النظام الدنيوي ذاته، فلله جنود السموات والأرض، وكلها تعمل لتتأكد النهايات الحتمية لهذا النظام، ولمكوناته من الناس: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ١٠﴾ (الليل)؛ ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ٤٢ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَٔۡخِرُونَ٤٣ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ٤٤﴾ (المؤمنون).

* وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم بعض المكنزمات التي هي من صنف مكنزمات البشر الاجتماعية، ولكنه تعالى يستخدم مثلها ليهيمن بها على ذات نوع الفعل البشري ومآلاته، منها مكنزم **"المكر"**: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ٣٠﴾ (الأنفال)؛ ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ٥١﴾ (النمل)؛ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ٢١﴾ (يونس). هناك مكنزمات **"الكيد"**: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا١٦﴾ (الطارق)؛ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ٤٥﴾ (القلم)؛ ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ٧٦﴾ (يوسف). وهناك مكنزمات **"الاستدراج"**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ١٨٢﴾ (الأعراف).

3.3.3- النظام الاجتماعي التوحيدي

* النظام الاجتماعي التوحيدي المثال يلخصه الرسم البياني رقم (4) في هذا البحث، وهو الحد الآخر، المقابل للنظام الاجتماعي الدنيوي المثال، الذي ينتهي إليه النظام الاجتماعي الفطري العام، ونفترض فيه نزول الوحي، وإرسال الرسل، وإيمان جميع مكونات هذا النظام من الناس بالله وبما أرسل به رسله.

1.3.3.3- مكونات النظام

* المؤمنون الذين يشكلون مكونات هذا النظام نتعرف على صفاتهم من خلال الآيات الآتية (ص 35 في الأصل).

* الآيات السابقة تبين لنا أن الصفات الإلهية الملهمة للتقوى هي وحدها الحاكم على نفوس المؤمنين الذين يكوّنون النظام الاجتماعي التوحيدي، وأن جميع أفعالهم وأعمالهم صالحة، وأنهم يسارعون في الخيرات، وأنهم راشدون، وأنهم شاكرون. المقصد من النظام الاجتماعي التوحيدي أن يمكن المؤمنين من تحقيق معنى العبودية لله تعالى، وجوهرها شكره على نعمه، الظاهرة والباطنة، لا سيما فيما على الأرض من زينة، من خلال المسارعة في الأعمال التي تعمر الأرض بالصلاح، فيزدادون إيمانا مع إيمانهم.

شكل رقم (4): نموذج نظام
الاجتماع التوحيدي

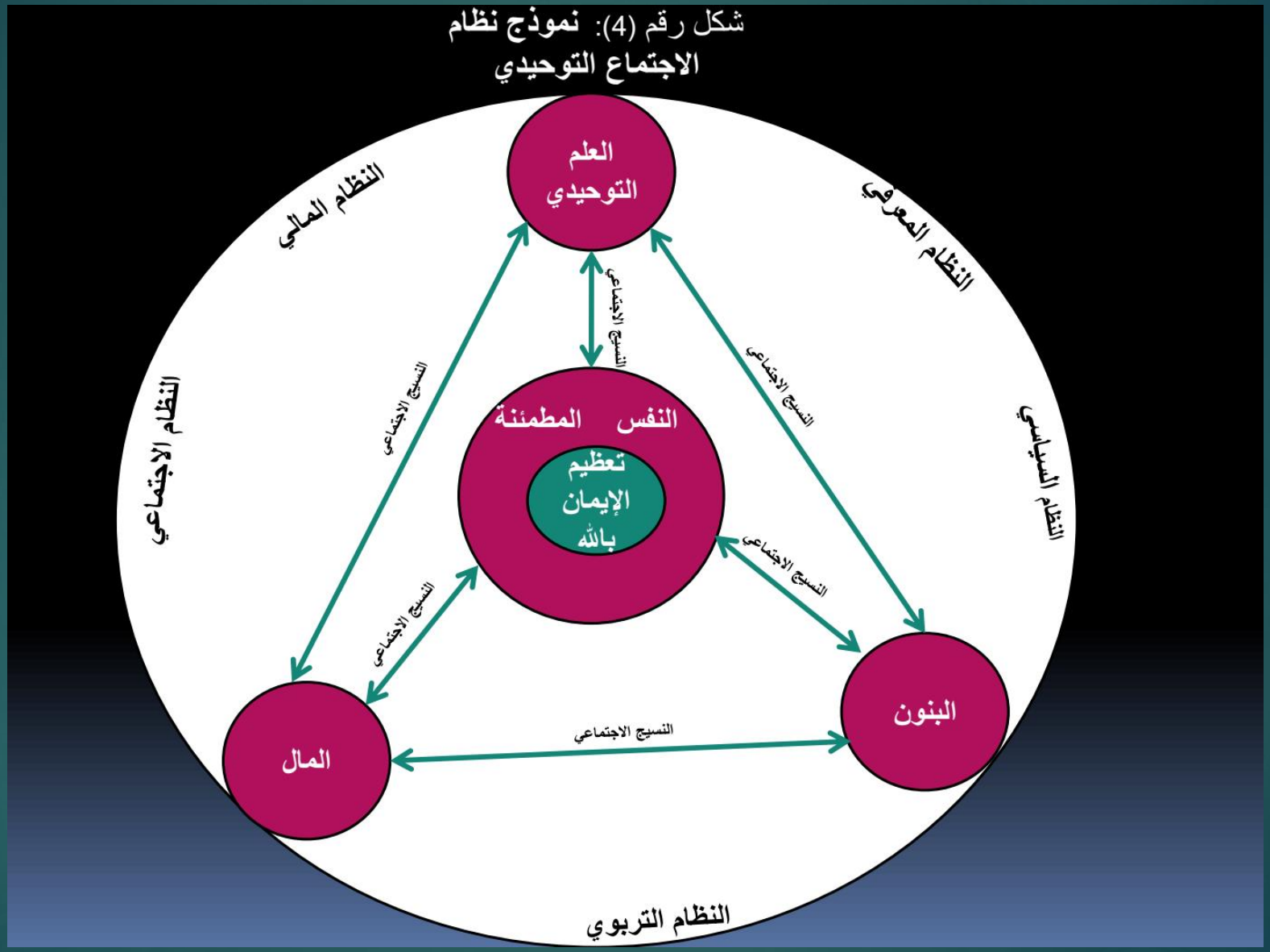

3.3.3.2. - بيئة النظام

* البيئة الخارجية للنظام تتكون من بيئة عالم الشهادة، وبيئة عالم الغيب، ويبين الشكل رقم (6) أن مكونات بيئة عالم الشهادة بالنسبة للنظام هي: الأرض؛ السماوات؛ الوحي، بينما مكوني "المال" و"البنون" يدخلان في تركيبة النظام الاجتماعي موضوع الدراسة من خلال ما عملته يد الإنسان فيهما، ويظهران في شكل نظم اجتماعية جزئية. البيئة الغيبية توجد على مستوى الخلق ويتكون من الشياطين؛ الجن؛ الملائكة، ثم من وراء ذلك الخالق تبارك وتعالى، وهو من وراء خلقه في عالمي الغيب والشهادة محيط. سمة بارزة في عالم الشهادة هي الوحي من الله تعالى إلى الناس في الأرض، ليظل بينهم مُذكِّرا إلى قيام الساعة، وهو يظل باقيا بين أهل الأرض، إما في شكل كتاب منزل محفوظ بحفظ الله له، وهو القرآن الكريم، وإما في شكل علم يُوحَى به إلى الرسل والأنبياء، ويأخذه عنهم العلماء، يتوارثونه، ويبينونه للناس بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء.

3.3.3.3 - بنية النظام

تتكون بنية النظام من مجموع الروابط الداخلية التي تربط بين مكونات النظام، والروابط الخارجية التي تربط بين مكونات النظام من جهة وبين مكونات بيئته الخارجية، في عالم الغيب والشهادة. إن نزول الوحي بعلم الله تعالى، وإرسال الرسل للبلاغ، وإيمان الناس بكل ذلك يترتب عليه إقامة الدين في الواقع الاجتماعي، وقد افترضناه نظاما اجتماعيا مثالا جميع من يكوّنونه راشدون، ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ٥١﴾ (النور). علم الوحي يحدد المعايير الأخلاقية، والقانونية، وكل القيم التي على أساسها يقام الدين، وبها تنضبط ديناميات التغيير فيه.

* هناك روابط داخلية بين المؤمنين ذات طبيعة عامة أثبتتها الآيات التي بدأنا بها هذا النظام تعريفا بخواص المؤمنين المكونين له، منها: **"الولاية"**؛ **"الأخوة"**، **"التراحم"**؛ **"الأمر بالمعروف"**؛ **"النهي عن المنكر"**؛ **"الشورى"**. وهناك روابط من جنسها ذكرتها السنة النبوية، منها: **"الحب"**؛ **"النصيحة"**، **"التواد"**؛ **"شد الأزر"**...إلخ. وهناك روابط تتأكد أهميتها في إطار نظام اجتماعي جزئي كالنظام المالي مثلا، منها **"إيتاء ذي القربى"**، **"إقامة الوزن بالقسط"**، **"النظرة إلى ميسرة"**، **"التصدق"**، **"الإحسان"**، **"الإطعام"**...إلخ. النظام البيولوجي والرَحِمي تتحدد فيه العلاقات الرابطة بين الرجال والنساء الأجنبيات من خلال توجيهات الوحي التي جوهرها **"أفعل"**، **"لا تفعل"**، مثل **"غض البصر"**، **"حفظ الفرج"**، **"عدم المواعدة سرا"**...إلخ، بينما الروابط الرحمية تقوم على **"المودة"**، **"الرحمة"**، **"الحب"**، **"البر"**، **"المعروف"**، **"الإيثار"**، **"الخلّة"**، **"الشفاعة"**، **"الإخاء"**، **"الصداقة"**...إلخ. النظام السياسي نذكر فيه روابط **"العدل"**، **"الشورى"**، **"النصرة"**، **"الأمر بالمعروف"**، **"النهي عن المنكر"**، **"الطاعة"**، **"النصيحة"**...إلخ.

* الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام وبيئته الخارجية على ثلاثة أضرب، روابط مع مكونات عالم الشهادة متمثلة في: الوحي؛ الأرض؛ السماء؛ وروابط مع مكونات عالم الغيب متمثلة في الملائكة؛ الشياطين؛ الجن؛ ثم أخيرا ما يربط المؤمنين بالخالق، تبارك وتعالى. إن نزول الوحي من السماء، واستقراره في الأرض كتابا يقرأه الناس، ويتفاعلون معه، إيجابا وسلبا، يمثل دينامية تنتهي بالنظام الاجتماعي الفطري إلى واحد من حديه، نظام الاجتماع الدنيوي، أو نظام الاجتماع التوحيدي، أو ينتهي إلى نظام اجتماع حدودي بين الحدين تتداخل فيه سمات النظامين الحديين. يشكل الوحي رؤية المؤمنين للعالم، وحبل الله المتين الذي يحدد روابطهم بالبيئة الخارجية للنظام، فمثلا، في العلاقة مع مكوّنات عالم الشهادة يرتبط المؤمنون في النظام الاجتماعي التوحيدي بالوحي بأوثق الروابط منها رابط "**الهداية**"، رابط "**الشفاء**"، رابط "**التدبر**"، رابط "**السكينة**"، رابط "**التعلّم**"، رابط "**التزكية**"، رابط "**الاعتصام**"...إلخ.

* العلاقة الجوهرية التي تربط المؤمنين بالأرض هي علاقة "**الاستخلاف**" المقتضية لعلاقة "**التسخير**"، المقتضية لعلاقة "**التمكين**". ثم هناك علاقة "**الاعتبار**" بما في الأرض من آيات الله الدالة عليه، ثم هناك علاقة "**الحياة**"، وهناك علاقة "**الموت**" لقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا٢٦﴾ (المرسلات). المؤمنون علاقتهم الجوهرية بالسماء نوعان؛ علاقة "**تسخير**"، وعلاقة "**اعتبار**": ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ١٣﴾ (الجاثية)؛ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ١٠١﴾ (يونس).

* أهم الروابط مع البيئة الغيبية هي تلك التي تربط مكونات النظام التوحيدي من المؤمنين بالشيطان، أحد مكونات هذه البيئة، وهو رباط جوهره **"العداء"**، فقد أخبر الوحي المؤمنين بأن الشيطان لهم عدو، وأمرهم أن يتخذوه عدوا. وعداوة الشيطان هي لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم، ولكن الكافر كفاه بكفره المهمة، وفرّغ جهده لإضلال المؤمنين. وقد بينا في تحليلنا لهذه العلاقة في إطار نظام الاجتماع الدنيوي كل أنواع الروابط التي تربط الشيطان بمطلق إنسان فنكتفي في هذا بذاك، غير أن الوحي يفيد بأن هناك علاقات للشيطان خاصة بالمؤمنين مثل علاقة **"التحزين"**: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾ (المجادلة). كذلك يزود الوحي المؤمنين بمكنزمات لمدافعة الشيطان نذكرها في موقعها أدناه، وهي مكنزمات فعّالة بدليل أن الشيطان لم يجد له سلطانا على من يكوّنون هذا النظام التوحيدي. بالنسبة للجن عموما فقد رأيت أن أتجاهل علاقتهم بالمؤمنين لأنها لا تبدو في رؤية القرآن للعالم جوهرية في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي.

* الرابط الجوهري بين المؤمنين والملائكة، المكوّن الثاني للبيئة الغيبية، هو رابط **"الولاية"**: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ٣١﴾ (فصلت)، وهناك رابط **"التثبيت"**: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ١٢﴾ (الأنفال). وهناك رابطان عامان يربطان كل الناس بالملائكة غير أن المؤمنين على وعي بهما، بينما الكافرون عنهما غافلون، وهما رابط **"الكتابة"**: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ٨٠﴾ (الزخرف)، ورابط **"الرقابة"**: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ١٨﴾ (ق).

* تربط المؤمنين بالله تعالى روابط متينة لا حصر لها نذكر أعمها، مثل رابط **"الولاية"**: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ٢٥٧﴾ (البقرة)؛ ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ٣٤﴾ (الأنفال). هناك رابط **"الحب"**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة)، وهناك رابط **"الصلاة"**، ورابط **"الرحمة"** الخاص بالمؤمنين، من دون الرحمة التي تعم جميع العباد: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا٤٣﴾ (الأحزاب). وعلى الجملة فإن جميع الصفات الإلهية التي حملتها الروح إلى الإنسان تمثل روابط تربط المؤمنين بالله تبارك وتعالى.

4.3.3.4- مكنزمات النظام التوحيدي

* المكنزمات الاجتماعية، في إطار فلسفة العلم المادية، هي المسارات (Pathways) التي يتخذها الفعل الاجتماعي من خلال النسيج الاجتماعي للربط بين الأسباب ونتائجها في إطار النظام الاجتماعي، وهذا هو التفسير المكنزمي لكيف يعمل النظام الاجتماعي المحدد ليؤدي وظائفه، أو للأحداث التي تقع في إطار التغيير الاجتماعي المستمر. ويعتبر التفسير المكنزمي أعمق من التفسير السببي لأنه يبين كيف يؤدي السبب إلى المسبب. إذن التفسير المكنزمي ليس بديلا للتفسير السببي بل تعميقا له، ولكن السببية ذاتها تأخذ أبعادا غيبية في رؤية القرآن للعالم كما تبيّن من خلال الأبعاد الغيبية للنظم الاجتماعية محل بحثنا هذا، وهذا هو التحدي المعرفي والمنهجي الحقيقي الذي يواجه البحث العلمي الاجتماعي المؤسس على رؤية القرآن للعالم. هنا المسارات السببية لا تقتصر على الفعل الاجتماعي من قِبل البشر المكونين للنظام الاجتماعي، بل هناك مسارات موازية، ومعاكسة يتخذها الفعل الشيطاني، مثلا، وتؤثر في الفاعل البشري وفعله، ومن ثم نتائجه، بحكم تسليط الشيطان على الإنسان، فكيف يتأتى إدماج ذلك منهجيا في التفسير المكنزمي للنظم الاجتماعية؟ كما أسلفنا فإن لله تعالى جنود السماوات والأرض، وأمره بين الكاف والنون، ولذلك فإن تداخل فعله السببي الغيبي مع الفعل الإنساني، والشيطاني في فضاء الاجتماع الإنساني لا يمكن التعويل في دراسته على المنهج المكنزمي وحده، فعندما أراد الله تعالى أن يري أحد ابني آدم كيف يواري سوءة أخيه بعث غرابا يبحث في الأرض. هذا تحد منهجي آخر

* المكنزمات الداخلية التي تعمل في إطار النسيج الاجتماعي الرابط بين المؤمنين بعضها عام مثل مكنزمات **"الإخاء في الله"**؛ **"الأمر بالمعروف"** و**"النهي عن المنكر"**؛ **"النصيحة"**؛ **"الحب"**، **"حسن الظن"**؛ **"الشورى"**؛ **"المساواة"**؛ **"الولاية"**؛ **"الإصلاح"**؛ **"تقوى الله"**...إلخ. هذه المكنزمات العامة تتولد منها مكنزمات متخصصة في كل النظم الاجتماعية المتخصصة في النظام الاجتماعي التوحيدي، كالنظام الحيوي الرحمي، النظام المالي، النظام التربوي، النظام الثقافي والنظام السياسي.

* المكنزمات التي تعمل في إطار علاقة مكونات المجتمع التوحيدي مع الأرض، أحد مكونات بيئة عالم الشهادة، تحددها طبيعة رابط **"الاستخلاف"** الذي ذكرناه من قبل، وأعمها على الإطلاق مكنزم **"الإصلاح"**؛ مكنزم **"الاستعمار"**؛ مكنزم **"إقامة الوزن بالقسط"**؛ مكنزم **"الشكر"**؛ مكنزم **"التفكّر"**؛ مكنزم **"الاعتبار"**...إلخ. معظم هذه المكنزمات هي ذاتها التي تعمل في إطار علاقة المؤمنين بالسماوات، المكوّن الثاني لبيئة عالم الشهادة، فالله تعالى الذي سخّر ما في السماوات وما في الأرض جميعا للإنسان، ذكر ما ينبغي أن تتأسس عليه العلاقة بينهما؛ وما يمكن أن تفضي إليه بفعل الإنسان: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ٩﴾ (الرحمن)؛ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ٧١﴾ (المؤمنون).

* الوحي الكريم، عِلْمُ الله تعالى، هو أحد مكونات البيئة الخارجية في عالم الشهادة للمؤمنين الذين يكوّنون النظام الاجتماعي التوحيدي، وهو أهم مكونات فضاء الاجتماع التوحيدي لأنه منه نال المؤمنون إيمانهم، ورؤيتهم للعالم. لذلك فإن هناك مكنزمات تعمل على الدوام لحفظ النظام الاجتماعي التوحيدي، وتطويره نحو كماله من خلال تطوير النظام النفسي للمؤمنين فيرتقوا في أسباب صلاح القلوب، وصلاح الأعمال فيزدادوا علما، وإيمانا، وعملا صالحا. أهم المكنزمات التي تعمل في هذه العلاقة هي: **"التدبر"**؛ **"القراءة"**؛ **"التعلم"**؛ **"الاستماع"**؛ **"الإنصات"**؛ **"حق التلاوة"**؛ **"القول به"**؛ **"العمل به"**، **"الاستشفاء"**؛ **"الهداية"**؛ **"الرحمة"**؛ **"قشعريرة الجلود"**؛ **"لين الجلود"**؛ **"لين القلوب"**؛ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ٢٣﴾ (الزمر)؛ **"الإخبات"**: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ٥٤﴾؛ **"الاعتصام"**: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران)...إلخ.

* هذه المسارات المكنزمية تعمل في الاتجاهين، فمن المؤمنين تأتي المبادرة بالأفعال نحو الوحي، ويعود الأثر الراجع من الوحي على المؤمن، جسدا ونفسا، فيتحقق الأثر الطيب في تغيير ما بأنفس المؤمنين، فيغير الله النظام الاجتماعي التوحيدي نحو كماله في كل نظمه الجزئية: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ٦٦﴾ (المائدة).

* البيئة الغيبية للنظام الاجتماعي التوحيدي تكون الروابط الفاعلة فيها بين المؤمنين والشياطين، وقد ذكرت، في إطار النظام الاجتماعي الدنيوي، المكنزمات التي من خلالها يعمل الشيطان للاستحواذ على الإنسان، وهي مكنزمات ناجعة جعلت الناس في ذلك النظام يستحبون الكفر على الإيمان. لذلك كان لابد للمؤمنين في النظام التوحيدي من مكنزمات تعمل كالترياق المضاد للشر الشيطاني، لأن الشيطان لن يألو جهدا في توظيف ذات مكنزماته لإضلال المؤمنين. أهم المكنزمات الفاعلة ضد الوسواس الشيطاني الخناس هي **"الاستعاذة"** بالله من همزات الشياطين؛ مكنزمات **"الإيمان والتوكل"** لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ١٠٠﴾ (النحل)؛ مكنزم **"الذِكر"** لقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ١٩﴾ (المجادلة). فذِكْر الله والشيطان لا يجتمعان، وأهم أنواع الذكر **الصلاة**، و**قراءة القرآن الكريم**.

المكنزمات التي تعمل في إطار الروابط التي تربط المؤمنين بالملائكة هي روابط يغلب عليها الاتجاه الواحد، من الملائكة إلى المؤمنين ممثلة بصورة جوهرية في مكنزمات **"الولاية"**: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ٣١﴾ (فصلت). هنا أيضا تحد منهجي لصعوبة رصد كيفية عمل هذه المكنزمات، وهو من جنس الإشكال المنهجي المتعلق بالتداخل السببي بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ورغم أنه تحدي إلا إنه فرصة أيضا لتطوير المنهجية الإسلامية التجريبية في هذا المجال الحيوي من الاجتماع الإنساني.

* النسيج الذي يربط المؤمنين بالله تعالى نسيج كثيف، ومتين كما أوضحت أعلاه، ومن ثم فإن المكنزمات التي تعمل لحفظ هذا النسيج وتطويره هي بذات الكثافة والفعالية، وهي تعمل في اتجاهين متعاضدين، يقوّي بعضهما بعضا، من المؤمنين إلى الله تعالى ومنه إليهم. أهم المكنزمات العامة التي يتمدد تأثيرها في كل نسيج النظام التوحيدي، بشقيه الداخلي والخارجي، هي **"الإيمان"** من المؤمنين، تقابلها مكنزم **"الأمن"**، ومكنزم **"الهداية"** من الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ٨٢﴾ (الأنعام). هناك أيضا مكنزم عامة وجوهرية، هي **"التقوى"** لله تعالى من المؤمنين تقابلها مكنزم من الله تعالى لا حدود لأثرها الايجابي، هي **"البشرى"**: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ٦٤﴾ (يونس). وهذه الآية تشير أيضا إلى مكنزمات **"الولاية"**. هناك أيضا مكنزم **"الدعاء"** من المؤمنين تقابلها مكنزم **"الاستجابة"** من الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ٦٠﴾ (غافر).

4.3.3. - نظام الواقع الاجتماعي

* الشكل رقم (5) يضم نموذج نظام الواقع الاجتماعي، وهو يقع في المنطقة الحدودية بين النظامين الدنيوي والتوحيدي، حيث يتقاطع النظامان، وذلك بسبب أن النظم الاجتماعية هي نظم مفتوحة، بمعنى أن حدودها قابلة للاختراق من قبل النظم المجاورة لها، وتمثل بيئتها التي تتأثر بها وتؤثر فيها. لذلك فإن نظام الواقع الاجتماعي هو دائما محصلة التفاعل الحدودي بين النظامين الدنيوي والتوحيدي، وقد تغلب عليه سمات أحد النظامين بحسب قوة التأثير لعوامل المد والجزر المتبادل بينهما على الدوام. وقد يتمايز النظامان التوحيدي والدنيوي ولا يتقاطعا، بل يتماسا عند الحدود، وذلك عندما تكون الحدود جغرافية، في الزمان والمكان، مما يسمح بدراسة قضايا العلاقات الدولية بحسب السناريوهات المختارة (أنظر الشكل رقم 7 أدناه).

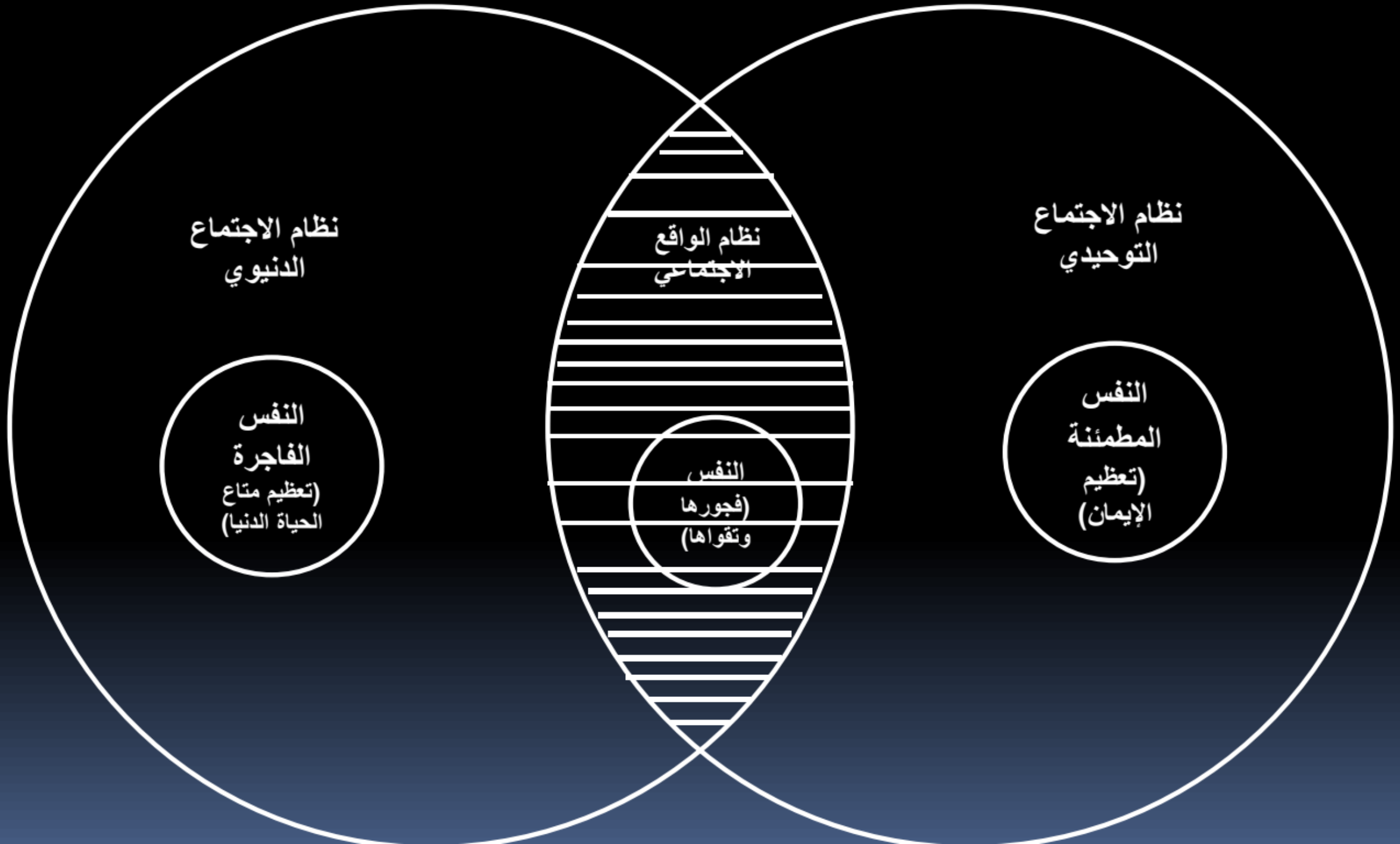
نظام الاجتماع
الدنيوي
النفس
الفاجرة
(تعظيم متاع
الحياة الدنيا)
نظام الواقع
الاجتماعي
النفس
(فجورها
وتقواها)
نظام الاجتماع
التوحيدي
النفس
المطمئنة
(تعظيم
الإيمان)

شكل رقم (7)

نظام الواقع الاجتماعي (2)

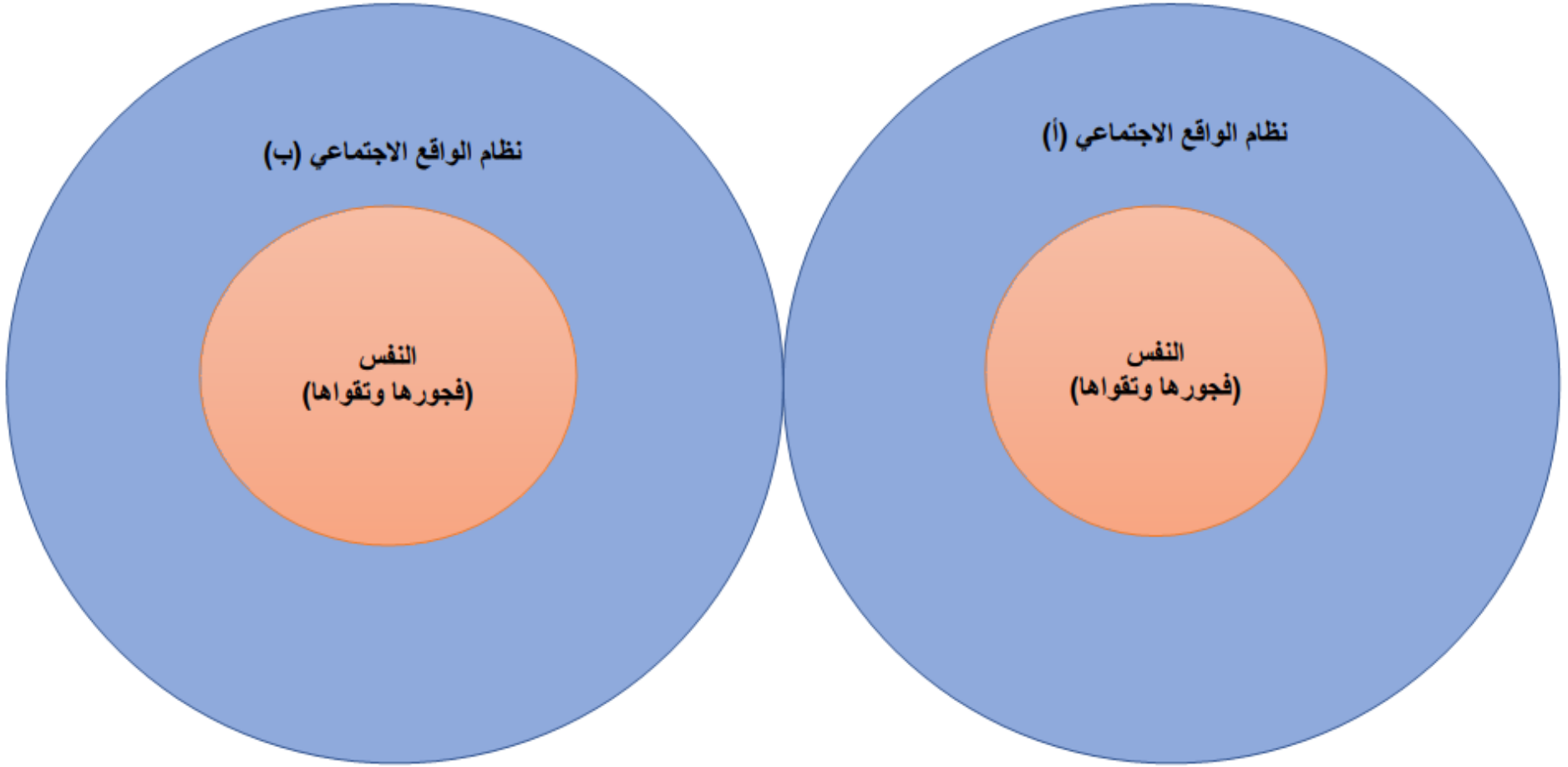

1.4.3.3- مكونات النظام

* يتكوّن نظام الواقع الاجتماعي من مكونات النظامين الدنيوي والتوحيدي، وما بينهما، فهناك المؤمنون بتصنيفاتهم التي ذكرها القرآن الكريم: الظالم لنفسه؛ المقتصد؛ السابق بالخيرات، وهناك الدنيويون بتصنيفاتهم التي ذكرها القرآن الكريم: المنافق؛ المشرك؛ الكافر. لكل صنف من هذه الأصناف خواصه النفسية، ومقاصده الحياتية، ولكنهم جميعا يتشاركون ذات الفضاء الاجتماعي الإنساني ببيئاته التي ذكرناها أعلاه، وهم يفعلون ويتفاعلون فيؤثر بعضهم على بعض. هذا النظام بهذه الخواص هو التحدي الأكبر للبحث العلمي النظمي في مجال الاجتماع الإنساني المنطلق من رؤية القرآن للعالم بسبب التعقيد البالغ الذي يأتي من تنوع مكونات النظام، ولكنه أيضا منجم لا ينضب للبحث العلمي في مختلف قضايا الاجتماع الإنساني المعاصرة انطلاقا من الوحي الكريم، بما في ذلك ما يسمى بالقضايا الاجتماعية الحدودية (boundary issues) الناجمة عن التعدد، والتنوع بمختلف أشكاله في المجتمع الواحد، أو المجتمعات المجاورة: ديني؛ ثقافي؛ إثني، طبقي، عنصري، جندري...إلخ.

* إن افتراض نزول الوحي، وإرسال الرسل يحدث فرقا تحليليا كبيرا في هذا النظام مقارنة بالنظامين الدنيوي، واالتوحيدي، فبينما تكوّن النظام الدنيوي افتراضا من كافرين جميع أعمالهم سيئة، وتكوّن النظام التوحيدي افتراضا من مؤمنين جميع أعمالهم صالحة وراشدة، يتكوّن نظام الواقع الاجتماعي من بشر منهم مؤمن، ومنهم كافر. فالمؤمنون، على مستوى الفرد، تتراوح أعمالهم بين صالح، وسيئ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ١٠٢﴾ (التوبة)، والعمل الصالح ذاته درجات فمنه ما هو واجب، ومنه ما هو مندوب، ومنه مباح بالجزء واجب، أو مندوب بالكل بمعايير الشاطبي، إلى آخر التصنيفات الشرعية للأعمال. كذلك العمل السيء أنواع ودرجات بالنسبة للمؤمنين، فمنه، من حيث النوع، ما هو فاحشة، ومنه ما هو فاحشة ومقتا، ومنه ما هو منكر، ومنه ما هو بغي، ومن حيث الدرجة فمنه ما هو حرام، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح بالجزء حرام، أو مكروه بالكل بمعايير الشاطبي...إلخ. لذلك المؤمنون درجات عند الله في نظام الواقع الاجتماعي هذا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، وجميعهم موعودون بالمغفرة: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ٣٣﴾ (فاطر).

* الكافرون في هذا النظام أيضا أنواع، وإن كانت جميع أعمالهم سيئة، فمنهم منافقون هم أقرب للكفر منهم للإيمان، ومنهم منافقون مردوا على النفاق، ومنهم مشركون، ومنهم كافرون. ولكل من هذه الأصناف خواص شخصية مختلفة مما ينعكس على نوع الفعل الاجتماعي الذي يصدر عنهم، ومن ثم طبيعة تفاعلهم الاجتماعي مع غيرهم في إطار نظام الواقع الاجتماعي، مما ينعكس على مآلات النظام ككل.

2.4.3.3. - بيئة النظام

* يُظهر الشكل رقم (5) أن البيئة الخارجية لنظام الواقع الاجتماعي ينضاف إلى ما كان فيها من مكونات في النظم السابقة مكونان جديدان هما: النظام الاجتماعي الدنيوي، والنظام الاجتماعي التوحيدي. هذان النظامان يردان هنا كنظامين مفهوميين يجعلان من النفس البشرية مستقرا ومستودعا، فهما جزء من النظام النفسي للإنسان الذي استعرضناه سابقا في هذا البحث، ويشكلان وعيه، ومن خلالهما يفعل ويتفاعل، ويؤثر في الواقع الاجتماعي بوعي، أو بلا وعي. والغرض من هذا التجريد النظري منهجي يفيد في دراسة التفاعلات الاجتماعية التي تجري في نظام الواقع الاجتماعي، ومن ثم تعطي مقاربة نظرية لما يجري فعلا في الواقع.

* هذان النظامان خرج من تفاعلهما الحدودي نظام الواقع الاجتماعي، ويشكلان على الدوام بيئة متفاعلة معه، وقد يكون تأثير أحدهما أكبر من الآخر فيتجه التغيير في نظام الواقع الاجتماعي نحو معطيات النظام الغالب. وهذا التغيير الاجتماعي كما أسلفنا قد يكون تطوريا (Evolutionary) غير منظور، وقد يكون إصلاحيا رفيقا، وقد يكون ثوريا عنيفا. هناك بيئة عالم الشهادة المكونة من "الوحي"؛ "الأرض" و"السماوات"، وبيئة عالم الغيب المكونة من "الشياطين"؛ "الجن" و"الملائكة"، وهناك فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، المصدّق والمهيمن على هذا التفاعل الكوني ومآلاته، وهو على كل شيء شهيد، وهو على كل شيء قدير.

3.4.3.3- نسيج النظام

* العلاقات الرابطة التي تبني نسيج، أو بنية نظام الواقع الاجتماعي تعتمد على السناريو الذي يعتمده الباحث، لكن إجمالا فإن النسيج الداخلي للنظام يُبني من روابط فيما بين المؤمنين أنفسهم، باعتبارين، الأول باعتبارهم مؤمنين، والثاني باعتبارهم مؤمنين مخالطين لغير المؤمنين، وتؤثر طبيعة المخالطة على هذه الروابط، فمخالطة المنافقين غير مخالطة المشركين، غير مخالطة الكافرين. نذكر من العلاقات العامة الرابطة بين المؤمنين وغيرهم في هذا النظام الاجتماعي رابط **"البر"** ورابط **"القسط"**: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ٨﴾ (الممتحنة). هناك أيضا رابط **"العدل"**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ٨﴾ (المائدة). وهناك رابط **"الإحسان"**، لأن الله تعالى يأمر بالعدل والإحسان مما ينطبق على هذا النظام في الأحوال العادية. ولكن هناك أيضا رابط "العزّة" إذا اقتضت العلاقة ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ٥٤﴾ (المائدة).

* كذلك هناك الروابط فيما بين الكافرين أنفسهم، بذات الاعتبارين أعلاه، وباعتبار اختلافهم بين منافق، ومشرك، وكافر. وهناك الروابط التي تربطهم بالمؤمنين وتعبّر عن مكنونات أنفسهم. ولا نخوض في تفصيل هذه الروابط الداخلية، فقد ذكرنا بعضها عند حديثنا عن نظام الاجتماع الدنيوي، ونظام الاجتماع التوحيدي، والقصة تطول، وهي تجري على منوال تحليلنا للنظم السابقة، ومكانها بحوث لاحقة إن شاء الله تعالى.

* هناك العلاقات الرابطة بين مكونات النظام وبين مكونات البيئة الخارجية في عالم الشهادة (الوحي، الأرض، السماوات)، وتعتمد طبيعة هذه الروابط على نوع المكوّن، إن كان مؤمنا، أم كافرا. سبق أن بينا ما يربط المؤمنين بالوحي في إطار النظام التوحيدي، لكن ههنا جديد في هذه العلاقة يأتي من كون المؤمنين تربطهم روابط معينة مع غير المؤمنين في ذات الفضاء الاجتماعي مما يستدعي علاقة لهم مع الوحي تناسب هذه الروابط، منها مثلا علاقة "الجهاد بالوحي" دعوة للآخرين بالدخول في زمرة المؤمنين؛ ومنها "جدلية الأصل والعصر" لجعل رؤية الوحي للعالم تواكب تحديات الفعل والتفاعل الاجتماعي في الزمان والمكان...إلخ. كذلك فإن تفاوت المؤمنين درجات في إيمانهم في هذا النظام بين ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات يؤسس لعلاقات متفاوتة مع الوحي، فالظالم لنفسه قد تكون علاقته "الهجر"، والمقتصد قد تكون علاقته "ما تيسر من القرآن"، والسابقون بالخيرات قد تكون علاقتهم به "حق تلاوته".

* العلاقة العامة لغير المؤمنين بالوحي بينّا حقيقتها في مناقشتنا لنظام الاجتماع الدنيوي، لكن ههنا أيضا جديد بسبب التفاعل بينهم وبين المؤمنين في فضاء اجتماعي واحد مما قد يؤسس لعلاقة "**جدلية**" بينهم وبين الوحي يقتضيها جدال المؤمنين لهم بالحسنى، وقد تكون علاقة "**لَغْو**" طلبا للغلبة على المؤمنين اقتضتها علاقات صراعية معهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ٢٦﴾ (فصّلت).

* الروابط التي تربط المؤمنين بالأرض تتفق مع تلك التي أكدناها في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي، وأهمها علاقة "الاستخلاف"؛ علاقة "**الاستعمار**"؛ علاقة "**الإصلاح**"؛ علاقة "**الاعتبار**"؛ علاقة "**التسخير**"، وعلاقة "**التمكين**". ولكن كون المؤمنين درجات في هذا النظام، بين ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، مضافا إليه علاقتهم بغير المؤمنين في ذات الفضاء الاجتماعي، قد يدخل علاقات جديدة مع الأرض مثل "**الإفساد**". الروابط التي تربط غير المؤمنين بالأرض هي في جوهرها علاقة "**استغلال**" وعلاقة "**إفساد**".

* علاقة المؤمنين بالسموات هي علاقتان إيجابيتان، وأخرى سالبة؛ علاقة "**تسخير**": ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ١٣﴾ (الجاثية)، وعلاقة "**اعتبار**" بآياتها: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ١٦٤﴾ (البقرة). وأما العلاقة السالبة فهي علاقة "**الإعراض**": ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ١٠٥﴾ (يوسف). والعلاقة الأخيرة متأتية من أن المؤمنين في هذا النظام درجات، فمنهم الغافل المعرض عن علاقة "**التفكّر**" التي ينبغي أن تربطه بخلق الله في عالم الشهادة حتى يخرج من حال "الظالم لنفسه"، ومن حال "المقتصد" إلى حال "السابق بالخيرات". أما غير المؤمنين فعلاقتهم الجوهرية التي تربطهم بالسموات تماثل علاقتهم بالأرض، هي علاقة "**استغلال**"، تؤدي إلى علاقة "**إفساد**"، كما أوضحنا ذلك في إطار النظام الدنيوي، ولكن هناك من تربطهم علاقة "**تقديس**" ببعض مكونات السماء كعبادة الشمس، وعبادة الكواكب: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ٣٧﴾ (فصلت).

* العلاقة التي تربط مكونات نظام الواقع الاجتماعي بمكونات عالم الغيب من "الشياطين"، "الجن" "والملائكة" علاقات بالغة التعقيد والتشابك، إذ لم يعد لدينا شياطين الجن فقط، بل شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ١١٢﴾ (الأنعام). ليس هذا فحسب، بل هذا الثنائي الشيطاني تتضافر جهوده ليجعل هذا الزخرف من القول أساسا لعلاقة "الوسوسة" التي تربطه بالناس في هذا النظام، فيؤثّر بذلك تأثيرا بالغا في خياراتهم الحياتية، ومن ثم في النتائج المقصودة، وغير المقصودة من الفعل والتفاعل الاجتماعي. لذلك أعرض هنا عن الخوض في تفاصيل هذه الروابط، ونرجئها إلى بحوث لاحقة، ولكن القارئ الحريص يمكنه أن يأخذ فكرة عامة عن طبيعتها مما سبق ذكره في إطار النظامين الدنيوي، والتوحيدي أعلاه.

* الله تعالى علاقته بالناس في نظام الواقع الاجتماعي هذا أكثر تعقيدا من علاقة مكوّنات عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة) بالناس التي ذكرتها آنفا، وهذا يتناسب مع عظمة الخالق تبارك وتعالى، وعظمة الخلق الكوني، بداية ونهاية وما بينهما، وما يؤول إليه الأمر كله؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير. نرجئ أيضا الخوض في هذا الأمر العظيم إلى بحوث لاحقة نفصّل فيها هذا المجمل من القول إن شاء الله تعالى، لكن الخلاصة المهمة هنا هي أن كل هذه الشبكة الكثيفة من العلاقات والروابط بين الواقع الاجتماعي الإنساني في تفاصيله اليومية، وبين بيئته في عالم الغيب والشهادة، وبين كل ذلك وبين الخالق، تبارك وتعالى، هي ما يصنع هذه النظم الاجتماعية العادية، ومآلاتها من الأحداث الأرضية، الاجتماعية والطبيعية. إن أي محاولة للتفسير العلمي لهذه الأحداث في إطار النظم التي تقع فيها، أو دراسة كيف تعمل النظم الاجتماعية البشرية سوف يكون معيبا في منطلقاته الوجودية، والمعرفية، والمنهجية، ومن ثم في نتائجه العلمية ما لم تتم صياغة هذه النظم في كامل أبعاد نسيجها الوجودي الذي بيّنّا ما وسعه جهدنا منه في هذا البحث. وهذا تحد للفلسفة الإسلامية للعلوم لا تحسد عليه، ولكن لا مهرب من التجرد له، وإنجازه لأن البحث العلمي في مجال الاجتماع الإنساني في حاجة ماسة إليه، وهو يتخبط في متاهات الفلسفات العلمية الدنيوية.

4.4.3.4- مكنزمات النظام

* أسلفنا القول إن المكنزمات في الطريقة النظمية لدراسة النظم الاجتماعية يقصد بها مسارات الفعل الاجتماعي التي تربط بين الأسباب ومسبباتها من خلال النسيج الاجتماعي الذي يربط مكونات النظام المعين، وهي التي تفسّر كيف يعمل النظام الاجتماعي المحدد بما يمكّنه من تحقيق وظائفه، أو تعطينا تفسيرا لأحداث حدثت في النظام مما أثار فضول الباحثين، ويرغبون في معرفة كيف حدث ما حدث. ذلك في الفلسفة العلمية المادية، ولكن الرؤية الوجودية القرآنية كما رأينا تضيف أبعادا غيبية تتداخل سببيا مع النظام الاجتماعي، مما يؤدي إلى تعقيد بالغ في كل معطيات النظام الاجتماعي. والمكنزمات بطبيعتها أمر خفي، وليس جلي، تحتاج إلى خيال مبدع من الباحث، وقدرات تنظيرية تمكّن من تطوير نظرية عن المكنزم المقترحة يمكن اختبارها تجريبيا، سواء تم استلهام المكنزم المعنية من الوحي الكريم، أو من النظام الاجتماعي التجريبي موضوع البحث. والمكنزمات الحقيقية تؤدي عملها، وتحدث أثرها المرتبط بها، سواء في عمل النظام، أو في وقوع الأحداث، ولكن يمكن للأثر ألا يكون ملحوظا إذا طغت عليه آثار مكنزمات أخري أقوى تأثيرا، وتعمل في اتجاه مساوق، أو معاكس. كذلك يمكن أن تكون هناك عدة مكنزمات تنتج ذات الأثر، وبعضها أفعل من بعض في إنتاجه. هذه الحقائق الوجودية أكثر ما تكون في نظام الواقع الاجتماعي الذي تتجاذبه قوى تأثير متنافرة، سواء في مكوناته، أو في نسيجه، أو مسارات الفعل فيه.

* المكنزمات التي تعمل في إطار العلاقات الداخلية بين المؤمنين، أحد مكونات النظام، تعمل باعتبارين: الأول علاقات المؤمنين في ذات بينهم باعتبار بعضهم أولياء بعض؛ والثاني باعتبار مخالطتهم لغير المؤمنين، وطبيعة هذه المكنزمات تعتمد على سناريو الواقع الاجتماعي الذي يختاره الباحث لدراسته. وينطبق ذلك على الروابط الداخلية التي تربط المؤمنين بغيرهم من المنطلقات القيمية للمؤمنين. هذا المنطق التحليلي يسري أيضا على علاقات غير المؤمنين في ذات بينهم، ومن منطلق مخالطتهم للمؤمنين، وفيما بينهم وبين المؤمنين.

تم بحمد الله